الدكتور فاضل صالح السامرائي

على طريق التفسير البياني



الجزء الرابع

سورة الأنبياء

دار ابن كثير

عَلَى طَرِيقِ

التَّفْسِيرِ البَيَانِيّ

الجُزْءُ الرَّابِعُ

• الموضوع: تفسير
• العنوان: على طريق التفسير البياني ٤١١
• تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

ٱلطَّبْعَةُ ٱلأُولَىٰ

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

ISBN 978-614-415-267-6

ISBN 978-614-415-267-6

• الطباعة : مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
• الورق: كريم / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
• القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 1656 / الوزن: 3200 غ

دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

/daribnkatheer @daribnkatheer daribnkatheer daribnkatheer

عَلَىٰ طَرِيقِ التَّفْسِيرِ البَيَانِيِّ

تأليف

الدكتور فاضل صالح السامرائي

الجُزْءُ الرَّابِعُ

سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ

دار ابن كثير

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذه السورة مرتبطة بخواتيم السورة التي قبلها وهي سورة (طه) من أكثر من وجه منها :

١ ـ أنه قال في خواتيم سورة طه :

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾

وقال في أول سورة الأنبياء :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾

ومما قيل في الأجل المسمى المذكور في آية طه أنه يوم القيامة[١] وهو موعد الحساب .

٢ ـ قال سبحانه في خواتيم سورة طه :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾

أي أتتك أياتنا فأعرضت عنها .

---

(١) انظر روح المعاني ١٦ / ٢٨٠ .

وقال سبحانه في أول سورة الأنبياء: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾

فكلتا الآيتين في المعرضين عن آيات ربهم.

٣ ـ قال في أواخر سورة طه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ۝١٣٠﴾

وقال في أول سورة الأنبياء: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾

وقال فيها أيضًا: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ۝٥﴾

فأمره في طه أن يصبر على ما قالوه في الأنبياء.

٤ ـ وقال في أواخر طه:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٣٣﴾

وقال في أول الأنبياء:

﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝٥﴾

فكلتا الآيتين في طلب آية.

جاء في (البحر المحيط): «مناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ [طه: ١٣٥] قال مشركو قريش: محمد يهددنا بالمعاد والجزاء على الأعمال، وليس يصح، وإن صح ففيه بعد فأنزل الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾»[1].

* * *

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٩٥ وانظر كتابنا (التناسب بين السورة في المفتتح والخواتيم) ١١٠ ـ ١١١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾

* * *

يحتمل أن يكون أصل التعبير (اقترب حساب الناس) ثم (اقترب الحساب للناس) بذكر اللام التي تفيد الاختصاص والاستحقاق.

ثم قدم الجار والمجرور للاهتمام والتهويل وهو المهم فقال: (اقترب للناس الحساب)، ثم أضيف (الحساب) إليهم ليكون مختصًّا بهم، وفيه تهديد أكبر فقال: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾.

ثم إن ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ يفيد المبالغة في القرب، فإن (افتعل) أدل على المبالغة من (فَعَل)، والأصل (قرب).

وقيل: إن اللام متعلقة بـ (اقترب)، واللام بمعنى (إلى) أو معنى (من)، والمعنى (اقترب من الناس حسابهم) أو (اقترب إلى الناس حسابهم). وقد ذكر هذين الاحتمالين صاحب (الكشاف) فقال: «هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلة لـ (اقترب)، أو تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم، كقولك: (أزف للحي رحيلهم)، الأصل: أزف رحيل الحي، ثم أزف للحي الرحيل، ثم أزف للحي رحيلهم... ومنه قولهم: (لا أبالك) لأن اللام مؤكدة لمعنى الإضافة... والمراد اقتراب الساعة، وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب

وغير ذلك. ونحوه: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧]»[١].

ومنع قسم من النحاة أن يكون (للناس) متعلقًا بالحساب؛ لأن (الحساب) مصدر ولا يتقدم معموله عليه. جاء في (البحر المحيط): «و(للناس) متعلق باقترب. . . وأما جعله اللام تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم مع تقدم اللام ودخولها على الاسم الظاهر فلا نعلم أحدًا يقول ذلك، وأيضًا فيحتاج إلى ما يتعلق به، ولا يمكن تعليقها بـ(حسابهم) لأنه مصدر موصول ولا يتقدم معموله عليه»[٢].

وذهب بعضهم إلى إجازة ذلك، جاء في (شرح الرضي على الكافية): «وأنا لا أرى منعًا من تقدم معموله عليه إذا كان ظرفاً أو شبهه نحو قولك: (اللهم ارزقني من عدوك البراءة وإليك الفرار)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ [النور: ٢]، وقال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. . . ومثله في كلامهم كثير، وتقدير الفعل في مثله تكلف»[٣].

ونحوه قوله: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٨]، وقولهم: (اللهم اجعل لنا من أمرنا فرجًا ومخرجًا)، وجعل الظرف متعلقًا بمحذوف حالاً من المصدر تكلف[٤].

إن تقديم الجار والمجرور (للناس) احتمل معنيين:

الأول: أنه بمعنى اقترب من الناس أو إليهم فيكون متعلقًا بالفعل (اقترب). وعليه الأكثرون.

والمعنى الآخر: أن يكون متعلقًا بالحساب، أي اقترب الحساب

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٥ـ٢٩٦.

(٣) شرح الرضي على الكافية ٣ / ٤٠٦.

(٤) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ٢ / ٢٢.

للناس ، أي حساب الناس . كما أجازه جماعة من النحاة .

فأفاد التقديم المعنيين واحتملهما ، بخلاف ما لو أخر الجار والمجرور فقال : (اقترب الحساب للناس) .

ثم إن تقديم (للناس) سوّغ ذكر الضمير في الحساب فقال : (حسابهم) ، ولو أخر الجار والمجرور فقال : (اقترب حساب الناس) أو : الحساب للناس لم يكن للضمير موضع .

فذكر في التعبير : الناس مع ضميرهم ، وهذا يفيد ضربًا من التأكيد .

وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب تهويل وتفخيم ، فكأن الحساب يحث السير والسعي للوصول إليهم ، فهو استعارة تمثيلية ، فكأن الحساب شخص مغير معجل الإغارة للوصول إلى الناس .

جاء في (تفسير أبي السعود) : «وفي إسناد الاقتراب المنبئ عن التوجه نحوهم إلى الحساب مع إمكان العكس بأن يعتبر التوجه والإعراض من جهتهم نحوه من تفخيم شأنه وتهويل أمره ما لا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شيء مقبل عليهم لا يزال يطلبهم ويصيبهم لا محالة» [1] .

وجاء في (التحرير والتنوير) : «الاقتراب مبالغة في القرب . . .

وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب استعارة تمثيلية ، شبه حال إظلال الحساب لهم بحالة شخص يسعى ليقرب من ديار ناس .

ففيه تشبيه هيئة الحساب المعقولة بهيئة محسوسة وهي هيئة المغير والمعجّل في الإغارة على القوم يلح في السير تكلفًا للقرب من ديارهم وهم غافلون عن تطلب الحساب إياهم كما يكون قوم غارّين معرضين

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٨٢ .

عن اقتراب العدو منهم»[١] .

﴿لِلنَّاسِ﴾

قيل: إن المقصود بالناس مشركو مكة ، وقيل: المشركون مطلقًا ، وقيل: هو عام في منكري البعث[٢] ، وقيل: إن المراد بالناس العموم[٣] .

والذي يبدو أن المقصود بالناس كل من اتصف بالغفلة والإعراض. وإطلاق لفظ الناس على هؤلاء من باب المجاز المرسل والعلاقة الكلية ، فقد ذكر الكل وأراد قسمًا منهم.

جاء في (الكشاف): «وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالناس المشركون. وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين»[٤] .

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾

وصفهم بالغفلة والإعراض ، وقيل: إن هذين الوصفين ظاهرهما التنافي ، فإن الغافل غير المعرض ، فإن المعرض عن الشيء إنما يكون إذا كان ذاكرًا له.

وقيل: إنهما وصفان باعتبار حالين مختلفين ، فإنهم غافلون فإذا ذكرتهم أعرضوا. جاء في (الكشاف): «وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، على معنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم. . . وإذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ٨ـ٩.

(٢) انظر الكشاف ٢ / ٣٢٠ ، البحر المحيط ٦ / ٢٩٥.

(٣) فتح القدير ٣ / ٣٨٤.

(٤) الكشاف ٢ / ٣٢٠.

من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا» (١).

وجاء في (البحر المحيط): «وأخبر عنهم بخبرين ظاهرهما التنافي لأن الغفلة عن الشيء والإعراض عنه متنافيان، لكن يجمع بينهما باختلاف حالين. أخبر عنهم أولاً أنهم لا يتفكرون في عاقبة أمرهم بل هم غافلون عما يؤول إليه أمرهم.

ثم أخبر عنهم ثانيًا أنهم إذا نبهوا من سنة الغفلة وذكروا بما يؤول إليه أمر المحسن والمسيء أعرضوا عنه ولم يبالوا بذلك» (٢).

وقال: (في غفلة) بذكر (في) الظرفية، ولم يقل: (غافلون)، للدلالة على أنهم ساقطون في الغفلة وأن الغفلة محيطة بهم من كل الجهات وهم مغمورون فيها. جاء في (التحرير والتنوير): «ودلت (في) على الظرفية المجازية التي هي شدة تمكن الوصف منهم، أي وهم غافلون أشد الغفلة حتى كأنهم منغمسون فيها أو مظروفون في محيطها» (٣).

ولم يرد نحو هذا التعبير في القرآن الكريم إلا في اليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩].

وقال: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠.
(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٦.
(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ١٠.

وآية الأنبياء هذه.

وذلك أشد الغفلة.

وجاء بالإعراض بالصيغة الاسمية فقال: ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ للدلالة على الثبات والدوام.

والوصف بالإعراض الثابت الدائم مناسب لهذه الغفلة العظيمة الغامرة.

وفي الآية مبالغات عديدة منها:

أنه قال: ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ ولم يقل: (قرب) وهو مبالغة في القرب.

وقال: (للناس) فأطلق الكل على الجزء وهم المشركون أو المتصفون بهذين الوصفين وهو مبالغة.

وقدم الجار والمجرور للاهتمام والتهويل ، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه أفاد التوسع في المعنى ، فقد يحتمل أن يكون ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلقًا بـ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ ، ويحتمل أن يكون متعلقًا بالحساب ، فأفاد معنيين وهو توسع في المعنى.

وأضاف الحساب إلى الناس فقال: ﴿حِسَابُهُمۡ﴾ تهويلاً وإنذارًا شديدًا ، ولم يقل: (اقترب للناس الحساب).

وقال: ﴿فِي غَفۡلَةٍ﴾ ولم يقل: (غافلون) للدلالة على تمكن الغفلة منهم وأنهم ساقطون فيها كالساقط في اللجة.

وقال: ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ بالاسم للدلالة على الثبات والدوام.

وجمع بين الغفلة والإعراض. فهم في غفلة فإذا ذُكّروا أعرضوا.

* * *

﴿ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ ﴾

ذكر من مظاهر إعراضهم أنه ما يأتيهم شيء من القرآن يذكّرهم إلا استمعوه وهم في لعب ولهو غير ملتفتين إلى شيء من ذلك.

وقال: ﴿ مَا يَأۡتِيهِم ﴾ فنفاه بـ(ما) للدلالة على شأنهم في الحال. ولم يقل (لا يأتيهم) فينفيه بـ (لا) التي تدل على نفي المضارع في المستقبل غالبًا، وإنما ذكر حالتهم آنذاك، وذلك أن (ما) النافية إذا دخلت على المضارع أفاد الحال.

وقال: ﴿ يَأۡتِيهِم ﴾ للدلالة على تجدد الإتيان واستمراره، ولم يقل: (ما أتاهم) التي قد تفيد حالة من حالات الماضي.

وقال: ﴿ مِّن ذِكۡرٍ ﴾ بـ(من) الاستغراقية التي تفيد التوكيد والاستغراق، فهم يعرضون ويلهون عن كل ذكر يأتيهم من ربهم وليس عن ذكر دون ذكر.

قال: ﴿ مِّن رَّبِّهِم ﴾ وهذا أسوأ شيء، فإن الذكر إنما هو من ربهم الذي هو خالقهم ومربيهم ورازقهم ومتولي أمرهم. وهذا أسوأ إعراض. فإنه لو كان اللهو والإعراض عن الذكر من جهة أخرى لكان أقل سوءًا ونكرًا، فكيف وقد أتاهم الذكر من ربهم؟!

ثم قال: ﴿ مُّحۡدَثٍ ﴾ أي جديد ينزل إليهم بعد ذكر سابق. فهم يعرضون عن كل ذكر ينزل على ما فيه من فنون الموعظة والتذكير.

ثم قال: ﴿ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ ﴾ ولم يقل: (سمعوه) مجرد السماع من دون معرفة بما فيه، وإنما استمعوا الموعظة وأدركوا مغزاها ومع ذلك استمعوها وهم يلعبون لاهين عابثين غير عابئين بها ولا ملتفتين إليها بل استمعوها لاهين ساخرين.

جاء في (الكشاف): «قرر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ

بأن الله يجدد لهم الذكر وقتًا فوقتًا ، ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون ، فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر التي هي أحق الحق وأجدّ الجد إلا لعبًا وتلهيًا واستسخارًا .

والذكر : هو الطائفة النازلة من القرآن» [١] .

وقال ههنا : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾

فقال : (من ربهم) .

وقال في الشعراء : ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾

فقال : (من الرحمن)

وذلك أنه ذكر في سياق آية الأنبياء صفات أشد سوءًا مما ذكره في الشعراء مما يبعدهم عن الرحمة .

فقد ذكر في الشعراء أنهم معرضون عن الذكر ، وقال : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾ فذكر أنه ستأتيهم الأنباء ولم يقل سيأتيهم العذاب .

في حين قال في سورة الأنبياء إنهم في غفلة وإنهم معرضون ، وإنهم يستمعون الذكر وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم ، وإنهم قالوا عن رسولهم ليس إلا بشرًا ، وإن ماجاء به سحر ، وإنه أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ، وإنهم أرادوا آية كما أرسل الأولون .

فكانوا أبعد عن الرحمة .

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠ .

وقال أيضًا: ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ .

وقال: ﴿ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ .

وقال: ﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾

وقال: ﴿ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

وقال: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

كل هذا لا يناسب الرحمة لأنه في مقام الإهلاك.

وأما في الشعراء فقد قال: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

فإن الله أرحم بك من ذلك.

وقال: ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ فذكر أنهم تأتيهم الأنباء ولم يذكر العقوبة.

ثم ذكر من مظاهر رحمته في الأرض فقال: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

ثم كرر قوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ثماني مرات في السورة.

ثم قال: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ فذكر العزيز الرحيم تسع مرات. فناسب ذلك ذكر اسمه (الرحمن).

فناسب ذكر (الرب) في آية الأنبياء، وذكر الرحمن في آية الشعراء.

جاء في (ملاك التأويل) في سبب الاختلاف بين هاتين الآيتين: «أن اسمه سبحانه (الرحمن) يغلب وروده حيث يراد الإشارة إلى العفو والإحسان والرفق بالعباد والتلطف والتأنيس...

وأما اسمه الرب فيعم وروده في طرفي الترغيب والترهيب... ولما

تقدم قبل آية الأنبياء من الأخبار ما طيّه وعيد وترهيب مع تلطفه سبحانه بهم بتذكيرهم لم يكن ليناسب ذلك ورود اسمه الرحمن.

ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ أشد تخويفًا للمخاطبين...

وأما آية الشعراء فمبنية على تأنيس النبي ﷺ وإعلامه أن توقف قومه عن الإيمان إنما هو بقدرته تعالى ولو شاء لأراهم آية تبهرهم كنتق الجبل فوق بني إسرائيل. وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] ثم رجع الكلام إلى تعنيف المكذبين. فلما كان بناء الآية على التأنيس والتلطف بنبينا ﷺ وإعلامه بأن تأخير العذاب عنهم إنما هو إبقاء منه تعالى ليستجيب من قدر له الإيمان منهم. فأشار إلى هذا وناسب اسمه الرحمن فقال تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾ فقد وضح ورود كل من الاسمين في موضعه على ما يجب ويناسب» [١].

وجاء في (كشف المعاني) لابن جماعة أنه «لما تقدم هنا ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ وذكر إعراضهم وغفلتهم وهو وعيد وتخويف فناسب ذكر الرب المالك ليوم القيامة المتولي ذلك الحساب.

وفي الشعراء تقدم ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ لكن لم يفعل ذلك لعموم رحمته للمؤمنين والكافرين لم يشأ ذلك، ويقوي ذلك تكرير قوله تعالى في السورة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾» [٢].

* * *

---

(١) ملاك التأويل ٢ / ٦٩٢ - ٦٩٤.

(٢) كشف المعاني ٢٥٤.

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾

«اللاهية من (لها عنه) إذا ذهل وغفل» [١].

أسند اللهو وهو الذهول والغفلة إلى القلوب ؛ لأن القلوب هي آلة الفقه والعلم ، وهي آلة التدبر والهدى ، وربنا يسند ذلك إليها أو ينفيه عنها. قال تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٩].

وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦].

وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤].

فإذا غفلت غفل صاحبها ، وإذا عقلت عقل صاحبها ، فوصف قلوبهم بالغفلة الثابتة فقال : (لاهية) بالاسم.

والوصف بالاسم هنا مناسب لوصفهم بالغفلة التي تغمرهم والإعراض الثابت في قوله : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾.

﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾

قوله : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ فيه مبالغة في الإسرار والإخفاء ، ذلك أن النجوى إنما تكون في السر ، فإذا قلت : (تناجى فلان وفلان) فمعنى ذلك أنهما أخفيا حديثهما ، فإذا قلت : (أسرّا النجوى) أفاد ذلك المبالغة في الإخفاء.

فالإسرار يفيد الإخفاء عن غير الذي تسر إليه الحديث.

والتناجي يفيد الإخفاء أيضًا. فإذا قلت : (أسرّ النجوى) فقد بالغت في الإخفاء.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا خفية فما معنى قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾؟

قلت: معناه: وبالغوا في إخفائها. . . أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون»[(١)].

إن قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يحتمل أوجهًا إعرابية متعددة، منها أن ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بدل من الواو في ﴿أَسَرُّواْ﴾، فقد أسند الإسرار إليهم على وجه العموم ثم بين الذين أسروا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

وهذا نظير ذكر الناس على العموم في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ ثم بين المقصود بهؤلاء الناس فيما بعد.

وهو تناظر لطيف.

ويحتمل أن التعبير مبني على التقديم والتأخير، فقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ جملة خبر مقدم، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مبتدأ مؤخر، فيكون من باب تقديم الخبر لغرض الاهتمام.

ويحتمل أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ منصوبًا على الذم أو على إضمار (أعني). وكل هذه الأوجه على اختلاف التقديرات تفيد الاهتمام والعناية كل بحسب ما يدل عليه.

وقيل: إنما هو على لغة (أكلوني البراغيث) أي على لغة من يجعل هذه الضمائر حروفًا تدل على الفاعل فيقولون: أقبلا الرجلان، وأقبلوا الرجال، وأقبلن النسوة.

والأولى تخريجها على لغة سائر العرب وما في ذلك من دلائل معنوية.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠ وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

جاء في (الكشاف): «أبدل ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من واو ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ إشعارًا بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به ، أو جاء على لغة من قال: (أكلوني البراغيث) ، أو هومنصوب المحل على الذم ، أو هو مبتدأ خبره ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ قدم عليه.

والمعنى: وهؤلاء أسرّوا النجوى ، فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بأنه ظلم» (١).

﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

أنكروا أن يرسل الله بشرًا مثلهم ، فإنه لا بد ـ فيما يرون ـ أن يكون الرسول من الله ملكًا وهذه شبهة كثير من المجتمعات البشرية ، فقد ذكر ربنا عن مجموعة من المجتمعات البشرية أنهم قالوا لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال في قوم نوح إنهم قالوا في رسولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقال في قوم بعد قوم نوح في رسولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٤].

وكذلك من بعدهم.

وأخبر ربنا أن هذه الشبهة منعت الناس من الإيمان فقال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

وكذلك هي شبهة كفار قريش ، ولذا أمر ربنا رسوله في أكثر من

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠ ـ ٣٢١ ، وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

موضع أن يقول لهم إنه بشر مثلهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦].

جاء في (الكشاف): «اعتقدوا أن رسول الله ﷺ لا يكون إلا ملكًا، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ومعجزته سحر، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر»(١).

«والسحر عنوا ما ظهر على يديه من المعجزات»(٢).

وجملة ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تحتمل أن تكون بدلاً من النجوى، أي أسروا هذا القول.

وتحتمل أن تكون مفعولاً به لقول محذوف، أي وأسروا النجوى قائلين: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

جاء في (الكشاف): «هذا الكلام كله في محل النصب بدلاً من النجوى، أي وأسروا هذا الحديث. ويجوز أن يتعلق بـ (قالوا) مضمرًا»(٣).

وذكرت أوجه أخرى(٤).

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وقال في سورة (طه): ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ [طه: ٦٢ ـ ٦٣].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢١.
(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧.
(٣) الكشاف ٢ / ٣٢١، تفسير أبي السعود ٣ / ٦٨٤.
(٤) انظر روح المعاني ١٧ / ٨.

فذكر القول إضافة إلى الإسرار فقال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ. . .﴾ ولم يذكر ذلك في آية الأنبياء فما الفرق؟

فنقول: إن ذكر القول مع ذكر النجوى آكد وأهم؛ لأنه ذكر القول مع ما فيه معنى القول. فإن النجوى معناها القول، ثم ذكر القول إضافة إلى ذلك، فكأنه قد كرر اللفظ فكان آكد.

وذلك أن الموقف في (طه) أشد، فإن السياق فيها إنما هو في موسى وفرعون وما حصل بينهما من المناظرة والمشادّة بعدما رأوا الآيات وكذبوها وزعموا أنها سحر، وأن موسى وأخاه ساحران.

وتحدوه بأنهم سيأتونه بسحر مثله. ثم إن فرعون جمع كيده ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

فالموقف في (طه) موقف تحدّ ومواعدة وامتحان ومغالبة، فكان الموقف أشد مما في الأنبياء الذي ليس فيه شيء من ذلك.

فناسب ذكر القول إضافة إلى ما في معناه في آية (طه) دون آية الأنبياء.

* * *

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: هلاّ قيل: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ لقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾؟

قلت: القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة، فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم السر.

كما أن قوله: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ آكد من أن يقول: (يعلم سرهم)، ثم

بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية؟»[١].

قد تقول: لقد قال سبحانه في سورة الفرقان: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

فقال في آية الأنبياء: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بإفراد السماء.

وقال في آية الفرقان: ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالجمع فلم ذاك؟

والجواب: إن القول أعم من السر، فهو يشمل السر وزيادة كما ذكر صاحب الكشاف، فإن القول يكون سرًا وجهرًا، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

وإن السماء أعم من السماوات[٢].

فناسب العموم العموم والخصوص الخصوص.

وقد تقول: ولم قال في آية الأنبياء ﴿يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ﴾.

وقال في آية الفرقان: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾؟

والجواب أنه ذكر النجوى وما قالوه فيها في آية الأنبياء، والنجوى قول، فناسب ذلك أن يقول: ﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ﴾.

وليس في آية الفرقان مثل ذلك، وإنما هي في سياق آخر فذكر السر. فقد قال قبل آية الفرقان: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾، فقالوا إنه أساطير الأولين اكتتبها، أي كتبت له وأمليت عليه، وهذا مما فعل في السر، فناسب ذكر السر.

جاء في (الكشاف) أن أسلوب آية الأنبياء خلاف أسلوب آية الفرقان

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢١ وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٧، روح المعاني ١٢ / ٣٢٦.

(٢) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ٥٢ ـ ٥٣.

«من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى ، فكأنه أراد أن يقول: إن ربي يعلم ما أسروه ، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة .

وثَمّ قصد وصف ذاته بأن أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ، فهو كقوله: ﴿عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾» [١] .

لقد ختم هذه الآية ـ أعني آية الأنبياء ـ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بذكر صفتي السمع والعلم ، ذلك أنه ذكر ما يسمع وما يعلم . فإن التناجي قول ، والقول مما يسمع ، وذكر الإسرار وهو مما يعلم ، فناسب ختم الآية بهذين الوصفين الجليلين .

وعرفهما للحصر ، فهو الكامل في هذين الوصفين دون غيره ، فليس ثمة ذات أخرى تتصف بهما على نحو ما يتصف به سبحانه .

* * *

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

«أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر ، وهكذا الباطل لجلج ، والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد» [٢]

«وهذه الأقوال الظاهرة أنها صدرت من قائلين متفقين انتقلوا من قول إلى قول ، أو مختلفين قال كل منهم مقالة» [٣] .

وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ «جواب شرط محذوف ،

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢١ .
(٢) الكشاف ٢ / ٣٢١ .
(٣) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧ .

أي إن لم يكن كما قلنا فليأتنا بآية كما أرسل الأولون» [١].

وهذه الأقوال جمعت القول في طبيعة الرسول وفيما جاء به وفي صفاته.

ففي طبيعة الرسول ذكر أنهم قالوا إنه بشر مثلهم.

وفيما جاء به قالوا إنه سحر وإنه أضغاث أحلام.

وفي صفاته قالوا إنه افتراه وإنه شاعر.

* * *

﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ ﴾

لما طلبوا أن يأتيهم بآية كما أرسل الأولون قال سبحانه: إن القرى التي أوتيت الآيات لم يؤمنوا، فأهلكها ربنا، أفهؤلاء يؤمنون؟ أي إنهم لا يؤمنون.

وفحوى ذلك أنه إن لم يؤمنوا فسيهلكهم كما أهلك الأولين. فأمسك عنهم الآيات ليستبقيهم فيؤمن منهم من يؤمن ويمكّن لهم في الأرض ويستخلفهم إلى قيام الساعة.

جاء في (الكشاف): «فيه أنهم أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فأهلكهم الله. فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث» [٢].

وجاء في (البحر المحيط): «ولكن حكم الله تعالى بإبقائهم ليؤمن من آمن ويخرج منهم مؤمنين» [٣].

---

(١) فتح القدير ٣ / ٣٨٥.

(٢) الكشاف ٢ / ٣٢١.

(٣) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧.

وجاء في (التحرير والتنوير): «وإنما أمسك الله الآيات والخوارق عن مشركي مكة لأنه أراد استبقاءهم ليكون منهم مؤمنون وتكون ذرياتهم حملة هذا الدين في العالم.

ولو أرسلت عليهم الآيات البينة لكانت سنة الله أن يعقبها عذاب الاستئصال للذين لا يؤمنون بها» (١).

والمراد بإهلاك القرية إهلاك أهلها.

جاء في (روح المعاني): «﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ صفة قرية. والمراد أهلكناها بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات» (٢).

لقد قال سبحانه: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم﴾ ولم يقل: (من قبلهم) ذلك أن (من) تفيد ابتداء الغاية(٣) أي من قبلهم القريبين فمن قبلهم.

وأما ﴿قَبْلَهُم﴾ فتفيد القبلية غير المقيدة فقد تكون قريبة أو بعيدة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ (٣٤)﴾.

فجاء بـ (من) لأن ذلك يشمل جميع من قبله ابتداء من الأقرب فمن قبلهم، فكلهم ماتوا ولم يخلد أحد منهم.

فقال: (قبلهم) ولم يقل: (من قبلهم) لأنه لم يحصل ذلك في الزمن القريب منهم، ذلك أن أقرب رسول منهم هو عيسى بن مريم، وبين الرسالتين أكثر من ستمائة عام، وهو زمن بعيد، ولا نعلم كم من الزمن ممن هو قبل عيسى حصل ذاك فلم يذكر (من).

وقال: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ بإدخال (من) الاستغراقية على القرية، فأفاد ذلك

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٧.

(٢) روح المعاني ١٧ / ١٢.

(٣) انظر كتابنا (معاني النحو) ٢ / ١٩٣ وما بعدها.

استغراق جميع القرى التي لم تؤمن.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ فجعل الإهلاك للقرية. في حين قال في موطن آخر: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ فجعل الإهلاك لأهلها، قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ۝٥٩﴾ فما السبب؟

فنقول: لما قال: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ فأسند الظلم إلى أهلها قال: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ [الحج: ٤٥] لما نسب الظلم إليها فقال: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ قال: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾؟.

ومن اللطائف في نحو هذا التعبير قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١٣] فقال: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ ولم يقل: (أهلكناها)، ذلك أنه لما قال: ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ ويعني بالقرية التي أخرجته مكة قال: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ ولم يقل: (أهلكناها) تعظيمًا لها لئلا يظن أنه سينالها الإهلاك كما فعل بالقرى العاتية. فجعل الإهلاك لأهلها، وليس ببعيد على الله أن يهلك العتاة من أهل هذه القرية كما فعل بغيرهم ويأتي بمن هو خير منهم.

ألا ترى أنه نسب الظلم إلى القرى في أكثر من موضع فقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ [الحج: ٤٨].

وقال: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ﴾ [الأنبياء: ١١] إلا مكة فإنه لم ينسب الظلم إليها، وإنما نسبه إلى أهلها تعظيمًا لها أن ينسب إليها الظلم وتكريمًا فقال: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾ [النساء: ٧٥].

وهو من لطيف مراعاة المقام.

* * *

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ ﴾

رد على قولهم: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ بهذه الآية، فذكر أن الرسل قبل سيدنا محمد كلهم بشر يوحى إليهم وليسوا ملائكة. وإن كنتم لا تعلمون ذلك فاسألوا أهل الذكر، أي أهل الكتاب حتى يعلموكم.

جاء في (الكشاف): «أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشرًا ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا» [1].

وجاء في (البحر المحيط): «ولما تقدم من قولهم: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ وأن الرسول لا يكون إلا من عند الله من جنس البشر قال تعالى رادًّا عليهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ أي بشرًا، ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا. ثم أحالهم على أهل الذكر فإنهم وإن كانوا مشابهين للكفار ساعين في إخماد نور الله لا يقدرون على إنكار إرسال البشر.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من حيث إن قريشًا لم يكن لها كتاب سابق ولا أثارة من علم» [2].

قد تقول: لقد قال في أكثر من موضع: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ بذكر (من)، وفي آية الأنبياء هذه لم يذكر (من).

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٨ وانظر روح المعاني ١٧ / ١٢.

فقد قال تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ بذكر (من).

وقال في النحل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ بذكر (من) أيضًا. فما الفرق؟

فنقول: إن السياق في كل موضع يوضح السبب:

فقد ذكر كثير من النحاة أن (من) في نحو هذا التعبير تدل على ابتداء الغاية، وذهب قسم آخر إلى أنها تفيد التوكيد[١].

ومقتضى ابتداء الغاية على ما ذكر بعضهم في نحو هذا التعبير أنه يفيد استغراق الزمن المتقدم ابتداء من ابتداء الغاية إلى ما قبله، وأن (من) تفيد توكيد ما دخلت عليه[٢].

ثم إن السياق في آيتي يوسف والنحل يختلف عنه في آية الأنبياء، فما كان في يوسف والنحل إنما هو في سياق العقائد.

فقد قال في سياق آية يوسف: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾.

فذكر كثرة الآيات التي يمرون عليها في السماوات والأرض وهم معرضون عنها. وهذه أعم وأكثر بكثير من كون (الرسل بشرًا)، فهذه

---

(١) انظر لسان العرب (من)، المغني ١ / ٣٢٥ـ٣٢٦، التصريح ١ / ٣٤٢.

(٢) انظر ملاك التأويل ١ / ٦٧٨، درة التنزيل ٢٤١.

مسألة واحدة وتلك آيات كثيرة. ثم ذكر معتقداتهم في الإيمان بالله مع شركهم به.

ثم قال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ ﴾.

فقد حذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل القرى الذين يمرون عليهم من العقوبة ويستمر في الكلام في نحو هذا.

كل هذا ليس متعلقًا بكون الرسل بشرًا أو ملائكة.

فالأمر آكد وأعم وأشمل، فجاء بـ(من) التي قد تفيد التوكيد والعموم.

وكذلك السياق في سورة النحل فإنه في العقائد والبينات والزبر وتحذير المعاندين بالعقوبات. فقد قال في سياق آية النحل: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦ ﴾.

فذكر استغراق بعث الرسل للأمم كلها ودعوتهم إلى عبادة الله واجتناب الطاغوت، وليس الكلام على كون الرسل بشرًا أو ملائكة، إلى أن قال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤ ﴾.

وطلب منهم استعلام أهل الكتاب عن البينات والزبر، وإنه أنزل الذكر إليه ليبين للناس ما نزل إليهم. وليس له علاقة بكون الرسل بشرًا أو ملائكة. فهو أعم وأشمل من ذلك. وحذر الذين يمكرون السيئات أن

يخسف الله بهم الأرض أو يعذبهم.

وهو نظير ما مر في سورة يوسف. فجاء بـ (من) الدالة على العموم والتوكيد والشمول.

وأما آية الأنبياء فهي في أمر واحد وهو ما يتعلق بإثبات بشرية الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾.

فما في يوسف والنحل أعم وأشمل.

ونظير آية الأنبياء هذه ما جاء في سورة الفرقان وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ ﴿٢٠﴾﴾.

فلم يذكر (من) في الموضعين لتشابههما.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ليست كل الأمم ينكرون بشرية الرسل، فإن أهل الكتاب لا ينكرون ذلك، ولذلك أحالهم على أهل الذكر للاستفسار، بخلاف الإيمان بما جاءت به الرسل، فإن عموم التكذيب إنما هو في ذلك.

فما في آيتي يوسف والنحل أعم من هذه الناحية أيضًا.

فإن المكذبين بما جاءت به الرسل أكثر من المكذبين بكون الرسل بشرًا.

فما جاء بـ (من) أكثر.

فناسب ذكر (من) من هذه الناحية أيضًا.

ثم إن آية الأنبياء مناسبة لما قبلها وهو قوله: ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ ﴿٦﴾ ﴾.

فكلتا الآيتين من دون (من).

فناسب ذلك من هذه الناحية أيضًا.

ثم لننظر في الآيات من ناحية أخرى:

فقد قال في آية يوسف: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾.

فذكر (أهل القرى) ذلك أنه قال في الآية: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ ﴾ وهم يمرون على القرى في سيرهم في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ ﴾ [الفرقان: ٤٠] فناسب ذكر القرى.

وقال في آية النحل: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ ﴾.

ذلك أنه قال بعد ذلك: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

فالتناسب ظاهر.

جاء في (درة التنزيل): «قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال في سورة النحل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ ﴾.

وقال في سورة الأنبياء: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

للسائل أن يسأل فيقول: هل بين قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ فرق؟ ولأي معنى خص موضع بحذف (من) وموضع بإثباتها؟

الجواب: أن يقال: إن (من) لابتداء الغاية. و(قبلك) اسم للزمان الذي تقدم زمانك. فإذا قال: (وما أرسلنا من قبلك) فكأنه قال: وما أرسلنا من ابتداء الزمان الذي تقدم زمانك، فيخص الزمان الذي يقع عليه قبل تحديه. ويستوعب بذكر طرفيه ابتداءه وانتهاءه.

وإذا قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ فمعناه: ما فعلنا في الزمان الذي تقدم زمانك...

فأما قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فإنما لم يؤكد بـ (من) لأن المعتمد بالخبر إنما هو الحال التي للمرسلين، وهي أنهم يأكلون الطعام وليسوا من الملائكة الذين طلب الكفار أن يبعثوا إليهم وأخبر الله تعالى به عنهم في قوله: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾» [1].

وجاء في (ملاك التأويل) في هذه الآيات التي ذكرها صاحب الدرة: «أن آية يوسف قد تقدمها قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾، وقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ وقوة السياق في هذه الآي يدل على القسم ويعطيه، فناسب ذلك زيادة (من) المقتضية الاستغراق.

وكذلك قوله في سورة النحل: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾ [النحل: ٤١] يؤكد ذلك

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ٢٤٠ ـ ٢٤٢.

المعنى. فناسبه زيادة (من) لاستغراق ما تقدم من الزمان.

أما قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ فتقدم قبلها إنكار الكفار كون الرسل من البشر في قوله: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ واقتراحهم الآيات في قولهم: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥﴾ ، فلما انطوى هذا الكلام على قضيتين من اقتراحهم الآيات وإنكارهم كون الرسل من البشر ، وقد تبين لهم حال المقترحين في قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ﴾ فلما تقدم هذا أتبع ببيان الطرف الآخر وهو التعريف بأن من تقدم من الرسل إنما كانوا رجالاً من البشر مختصين بتخصيصه سبحانه ولم يكونوا ملائكة ، فقيل لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ . فقيل هنا (قبلك) كما قيل في نظيرتها ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم﴾ فلم تدخل هنا (من) كما لم تدخل في النظير الآخر لإحراز التناسب والتحام الجملة المنطوية على طرفي مقصدهم من الاقتراح وإنكار كون الرسل من البشر» (١).

* * *

﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨﴾

أي لم نجعلهم أجسادًا لا تأكل الطعام ، وإنما جعلناهم بشرًا يأكلون ويشربون ويموتون كسائر البشر.

وهو رد على قولهم مستنكرين: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ وقولهم في موضع آخر: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧].

جاء في (الكشاف): ﴿لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفة لجسدًا ، والمعنى: وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله ذوي جسد غير طاعمين.

---

(١) ملاك التأويل ٢ / ٥٤٠ ـ ٥٤١.

ووحد الجسد لإرادة الجنس ، كأنه قال : ذوي ضرب من الأجساد .

وهذا رد لقولهم : ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان : ٧٠]» (١) .

ونفى الجملتين بـ (ما) دون (لم) ذلك أن (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلام أو ما نزل هذه المنزلة ، تقول : (لقد قال فلان كذا وكذا) فيقال لك : (ما قال ذلك) . قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة : ١١٦] .

فكان جوابه : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦ﴾ [المائدة : ١١٧] (٢) .

جاء في (الفروق اللغوية) : «(ما) جواب عن الدعوى ، تقول : قلت كذا ، ويكون الجواب : ما قلت» (٣) .

ومن ناحية أخرى أن (ما) آكد من (لم) ، فإنها تقع جوابًا لقسم ، بخلاف (لم) ، قال تعالى : ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ٢٣] ، وقال : ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ [التوبة : ٧٤] .

* * *

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

هذه إشارة إلى أنه سبحانه سيصدق رسوله ما وعده من النصر والظفر وإهلاك أعدائه كما فعل مع الرسل قبله .

جاء في (البحر المحيط) : «ذكر تعالى سيرته مع أنبيائه فكذلك يصدق

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢ ، وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٨ ـ ٢٩٩ ، روح المعاني ١٧ / ١٣ .

(٢) انظر معاني النحو ٤ / ١٦٧ .

(٣) الفروق اللغوية ٣٣٤ .

نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه ما وعدهم به من النصر وظهور الكلمة ، فهذه عدة للمؤمنين ووعيد للكافرين» (١) .

وجاء بأداة التراخي (ثم) إشارة «إلى أنهم طال بلاؤهم بهم وصبرهم عليهم ، ثم أحل بهم سطوته وأراهم عظمته . ولذا قال مسببًا عن ذلك : (فأنجيناهم) أي الرسول بعظمتنا» (٢) .

«والإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى : ﴿ وَمَن نَّشَآءُ ﴾ احتباك ، والتقدير : فأنجيناهم ومن شئنا وننجي رسولنا ومن نشاء منكم . وهو تأميل لهم أن يؤمنوا لأن من المكذبين يوم نزول هذه الآية من آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مكة .

وهذا من لطف الله بعباده في ترغيبهم في الإيمان . ولذلك لم يقل : (ونهلك المسرفين) بل عاد إلى صيغة المضي الذي هو حكاية لما حل بالأمم السالفة . . .

والمسرفون : المفرطون في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه حتى حل بهم العذاب» (٣) .

* * *

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الذكر : الشرف والصيت والثناء ، والذكر : الكتاب الذي فيه تفصيل الدين ووضع الملل ، والذكر : الموعظة ، والتذكير : الوعظ (٤) .

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٩٩ .

(٢) نظم الدرر ١٢ / ٣٩٢ .

(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ٢١ .

(٤) انظر لسان العرب (ذكر) ، تاج العروس (ذكر) .

والمعنى: لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه شرفكم وصيتكم وفيه موعظتكم وهداكم. فجمع فيه الهدى والموعظة والصيت والشرف والثناء عليهم.

أفلا تعقلون عظمة هذا الكتاب ونفعه لكم؟ وهل هناك عاقل يرفض ما فيه من خير كثير؟! وماذا يريد الإنسان أكثر من ذلك؟! وجاء بـ (لقد) الدالة على القسم ليؤكد هذا الأمر.

جاء في (الكشاف): «(ذكركم) شرفكم وصيتكم، كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: ٤٤] أو موعظتكم، أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر، كحسن الجوار والوفاء بالعهد وصدق الحديث وأداء الأمانة والسخاء وما أشبه ذلك» (١).

* * *

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾

* * *

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١﴾

القصم: أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء ويفرقها بالكلية.

والتعبير بالقصم يدل على غضب شديد.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢ وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٩، تفسير أبي السعود ٣ / ٦٨٩، روح المعاني ١٧ / ١٤ ـ ١٥.

و(كم) خبرية وهي تدل على التكثير.

ونسب الظلم إلى القرية والمقصود أهلها لإرادة الشمول والعموم.

جاء في (الكشاف): «﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم لأن القصم أفظع الكسر، وهوالكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم.

وأراد بالقرية أهلها، ولذلك وصفها بالظلم.

وقال: ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ لأن المعنى: أهلكنا قوما وأنشأنا قومًا آخرين» (١).

وجاء في (روح المعاني): «وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها بالكلية، كما يشعر به الإتيان بالقاف الشديدة من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط ما لا يخفى» (٢).

قد تقول: لقد قال في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

فذكر القرية في الأنبياء، وذكر القرن في الأنعام.

وذكر القصم في الأنبياء، وذكر الإهلاك في الأنعام.

وقال في الأنبياء: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

(٢) روح المعاني ١٧ / ١٥.

وقال في الأنعام: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾

فما دلالة ذلك في كل من الموطنين؟

فنقول:

١ ـ القرن أهل زمن واحد، والجيل الواحد، وقيل: هو مائة سنة، وقيل: ثمانون، وقيل غير ذلك[١].

أما القرية فمعروفة.

والقرن إنما تكون فيه قرى كثيرة. فالقرن الواحد يشمل كثيرًا من القرى، فقد تكون عشرات القرى في زمن واحد.

فالقرى أكثر عددًا من القرن.

ثم إنه وصف القرن بأوصاف تخصصهم قد لا تكون في القرية، فقد قال فيه: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾. وقد تكون القرية غير ممكنة في الأرض كما وصف.

وذكر أنه أرسل السماء عليهم مدرارًا وجعل الأنهار تجري من تحتهم، وليست كل القرى كذلك.

٢ ـ قال في آية الأنبياء: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

وقال في آية الأنعام: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾

فقال بعد إهلاك القرى إنه أنشأ قومًا آخرين.

وأما القرن فيليه قرن آخر فناسب ذكر القرن بعد إهلاك القرن قبله.

٣ ـ قال في آية الأنبياء: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾.

---

(١) انظر لسان العرب (قرن)، تاج العروس (قرن)، المصباح المنير (قرن).

وقال آية الأنعام: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

ذلك أنه بعد إهلاك القرى قد يتأخر الزمن لمجيء قوم بعدهم ، فقد تبقى القرى خالية خاوية من دون أن يأتي بعد هلاكها قوم.

أما القرن فيليه القرن الآخر بلا فاصل ، فجاء بـ(من) التي تفيد الابتداء.

٤ ـ قوله: (قصمنا) في آية الأنبياء مناسب لقوله: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ ذلك أن الظلم يستدعي شدة العقوبة.

وقوله: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ مناسب لقوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ فإن الذنوب قد تكون كبيرة وقد تكون دون ذلك.

فناسب ذكر القصم وهو أفظع الكسر والمنبئ عن السخط الشديد ذكر الظلم.

وناسب ذكر الإهلاك الذي قد لا يبلغ مبلغ القصم قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾.

ثم إن القصم إهلاك خاص فناسب ذكر الظلم ، وهو أخص من عموم الذنب.

وإن الإهلاك عام فناسب ذكر الذنوب وهي عامة.

فناسب كل تعبير موضعه.

وقد تقول: لكنه سبحانه قد يذكر الظلم ولا يذكر القصم وإنما يذكر الإهلاك كما قال تعالى في سورة الحج: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

فنقول: القصم كما ذكرنا ينبئ عن شدة العقوبة وشدة السخط ، ولو نظرنا في سياق كل من الآيتين في الحج والأنبياء لاتضح الفرق.

فإنه قال في آية الحج: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

وقال في سياق آية الأنبياء: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

فذكر أنهم أترفوا وأنهم نادوا بالويل وأقروا بالظلم ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وأنه سبحانه جعلهم حصيدًا خامدين.

فالفرق ظاهر.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾

الركض: ضرب الدابة بالرجل، يقال: (ركض الدابة) أي ضربها برجله لتسرع.

ومعنى الآية أنهم لما أحسوا العذاب ركضوا دوابهم هاربين من القرية. ويحتمل أنهم جروا على أرجلهم مشبهين من يركض الدابة لسرعة عَدْوهم.

و(إذا) فجائية، أي هربوا عند إحساسهم بالعذاب من دون تأخر أو انتظار. جاء في (الكشاف): «والركض: ضرب الدابة بالرجل، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢]. فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ويجوز أن شبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم»[1].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

وجاء في (البحر المحيط): «والظاهر أنهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين. قيل: ويجوز أن شبهوا في سرعة عدْوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم، فهم يركضون الأرض بأرجلهم كما قال: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾» (١).

* * *

﴿ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

من المحتمل أنه قيل لهم ذلك والقول محذوف، أو أن ذلك قول بلسان الحال، أي حريّ بهم أن يقال لهم ذلك. جاء في (تفسير أبي السعود): «أي قيل لهم بلسان الحال أو بلسان المقال» (٢).

والهروب من مساكنهم وما هم فيه من ترف ورفاه وسعة عيش فجأة من دون تأخر يدل على شدة ما نزل بهم.

﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ عما نزل بكم وما جرىٰ لأموالكم ومساكنكم وماذا تأمرون وبم تشيرون علينا وماذا نفعل. وهذا تهكم بهم.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: من القائل؟

قلت: يحتمل أن يكون بعض الملائكة أو مَن ثَمّ من المؤمنين أو يجعلوا خلقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل.

﴿ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ من العيش الرافه والحال الناعمة، والإتراف: إبطار النعمة وهي الترفة.

﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ تهكم بهم وتوبيخ، أي ارجعوا إلى نعيمكم

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٠.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٠.

ومساكنكم لعلكم تسألون غدًا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة» [(١)].

وجاء في (روح المعاني): «﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل، أو تسألون عما جرى عليكم ونزل بأموالكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو يسألكم حشمكم وعبيدكم فيقولوا لكم: بم تأمرون وماذا ترسمون وكيف نأتي ونذر كما كنتم من قبل» [(٢)].

* * *

﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ۝١٥﴾

أي نادوا بالويل وهو الهلاك. وذكروا علة الهلاك وهي الظلم. وأطلقوا الظلم ولم يخصصوه بشيء للدلالة على عموم الظلم وأن ظلمهم كان عامًّا لا ينحصر بشيء.

وجاء بالاسم للدلالة على اتصافهم بالظلم على جهة الثبات والدوام وليس على جهة الحدوث، فاستحقوا ما نزل بهم من العذاب.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي ظلوا يرددون هذا القول ويدعون بالويل حتى جعلهم ربنا كالزرع المحصود، خامدين كالنار الهامدة.

وقال: ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ﴾ ولم يقل: (حتى صاروا) أو (حتى أصبحوا) أي إن ذلك من فعل ربنا بهم عقوبة لهم.

جاء في (الكشاف): «(تلك) إشارة إلى (يا ويلنا) لأنها دعوى.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

(٢) روح المعاني ١٧ / ١٦.

كأنه قيل: فما زالت تلك الدعوى دعواهم.

والدعوى بمعنى الدعوة، قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠] ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فإن قلت: لم سميت (دعوى)؟

قلت: لأن المولول كأنه يدعو الويل فيقول: تعال يا ويل فهذا وقتك... (حصيدًا) الحصيد: الزرع المحصود، أي جعلناهم مثل الحصيد، شبههم به في استئصالهم واصطلامهم» (١).

و«(خامدين) أي موتى دون أرواح مشبهين بالنار إذا طفئت» (٢).

وقوله: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ «أي فما زالوا يرددون تلك الكلمة» (٣).

* * *

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

لما أثبت للناس اللهو واللعب في أول السورة وذمهم بذلك في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ نفى عن نفسه ذلك في هاتين الآيتين، بل نفى عنه ذلك منذ أول الخلق إلى الأبد، فإنه لم يفعل شيئًا ولا يفعل شيئًا إلا عن حكمة، وقد أظهرت شيئًا من ذلك آيات السورة من أولها إلى آخرها.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٠١.

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٠.

فقد قال ههنا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ وهذا أول الخلق.

وقال في خواتيم السورة: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، وقال: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ (١٠٤)﴾.

وكما قال ذلك في مواضع عدة من القرآن الكريم من نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

وقال بعد الآية: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

جاء في (نظم الدرر): «ولما ذمهم باللعب وبين أنه يفعل في إهلاك الظلم وإنجاء العدل فعل الجادّ بإحقاق الحق بالانتقام لأهله وإزهاق الباطل باجتثاثه من أصله... عطف عليه قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ أي بعظمتنا التي تقتضي الجد ولا بد...

ولما نفى عنه اللعب أتبعه دليله فقال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ...﴾»(١).

وجاء في (الكشاف): «أي وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق... للهو واللعب، وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعد...

ثم بين أن السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي هو

---

(١) نظم الدرر ١٢ / ٣٩٧ـ٣٩٨.

أن الحكمة صارفة عنه وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلاً»[١].

وقال: (خلقنا) بإسناد الخلق إلى ضمير العظمة، ولم يرد (خلقت) في نحو هذا التعبير في القرآن العظيم.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾

وقال في سورة الدخان: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وفي التعبيرين تشابه واختلاف.

من ذلك إفراد السماء في آية الأنبياء وجمعها في الدخان، وذكر اللهو في سياق الأنبياء في قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ ولم يذكر ذلك في الدخان. وغير ذلك من الاختلاف. ولكلٍّ من ذلك سببه المناسب.

١ ـ فقد نفى عن نفسه سبحانه اللعب واللهو في آيتي الأنبياء، فقد قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ فنفى عنه اللعب.

ثم قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ فنفى عنه اللهو، وذلك أنه أثبت في أول السورة للناس اللعب واللهو فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

وأما في الدخان فقد أثبت لهم اللعب فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾.

فنفى عنه سبحانه اللعب.

٢ ـ أثبت في الدخان لهم الشك فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾ ونقيض الشك العلم فنفى عنهم العلم فقال: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
ذلك أن الشاكّ ليس عنده علم يفضي إلى اليقين فنفى عنهم ذاك.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

٣ ـ أفرد السماء في سورة الأنبياء فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ وذلك مناسب لما ورد في أول السورة، فقد قال سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

وجمعها في سورة الدخان فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ وهو مناسب لما ورد في أول السورة، فقد قال: ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الدخان: ٧].

فناسبت كل آية مفتتح سورتها.

٤ ـ إن الكلام في سورة الأنبياء مبني على العموم، فقد قال: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾.

فذكر الناس على العموم.

وقال: ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ والسماء أعم من السماوات.

ذكر الأمم على العموم فقال: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ ﴿٦﴾ ﴾.

فجاء بـ (من) الاستغراقية.

وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ ﴿٧﴾ ﴾ فذكر الرسل قبله.

وقال: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴿١١﴾ ﴾ فجاء بـ (كم) الخبرية الدالة على التكثير.

أما في الدخان فقد ذكر ذلك على سبيل الخصوص.

فقد ذكر قوم فرعون فقال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴿١٧﴾ ﴾.

ثم ذكر كفار قريش فقال: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وذكر قوم تبع والذين من قبلهم فقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴿٣٧﴾﴾.

فذكر القرى على العموم في الأنبياء.

وذكر قومًا مخصوصين في الدخان.

فناسب العموم العموم وهو (السماء).

وناسب الخصوص الخصوص وهو (السماوات).

فإن السماء قد تأتي أعم من السماوات كما ذكرنا في أكثر من مناسبة.

٥ ـ ذكر الأنبياء في سورة الأنبياء على العموم.

ثم ذكر من أسمائهم ما هو أعم وأكثر مما هو في سورة الدخان. فقد قال في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

وقال: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴿٢٤﴾﴾.

وهذا يعم جميع الأنبياء بلا استثناء.

وذكر من الأنبياء موسى وهرون فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً ﴿٤٨﴾﴾

وذكر إبراهيم فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴿٥١﴾﴾.

ولوطًا فقال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿٧٤﴾﴾

وإسحاق ويعقوب (٧٢)، ونوحًا (٧٦)، وداود وسليمان (٧٨)، وأيوب (٨٣)، وإسماعيل وإدريس وذا الكفل (٨٥)، وذا النون (٨٧)، وزكريا (٨٩)، ويحيى (٩٠).

في حين لم يذكر في الدخان اسم رسول وإنما ذكر قوم فرعون بشيء من التفصيل ، وأشار إلى قوم تبع والذين من قبلهم .

فلما كان الكلام في الأنبياء على العموم ذكر السماء التي تفيد العموم .

فناسب العموم العموم من كل وجه .

* * *

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

لما نفى سبحانه عن نفسه اللهو واللعب أضرب عن اتخاذهما فأخبر أنه يقذف بالحق على الباطل .

وأصل القذف : الرمي الشديد بجسم صلب كالحجارة والحصا ونحو ذلك . جاء في (روح المعاني) : «وأصل القذف الرمي البعيد كما قال الراغب وهو مستلزم لصلابة الرمي» [(١)] .

فكأن الحق جرم صلب شديد والباطل جسم رخو وقد قذف به على الباطل فحطمه .

وجاء بـ (إذا) الفجائية للدلالة على سرعة زهوقه واضمحلاله .

وقال : ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ بالاسم ولم يقل : (فإذا هو يزهق) للدلالة على الثبات وللدلالة على سرعة زهوقه ، فكأن الأمر حاصل وثابت ، ولم يدع له فرصة لبقائه ومكثه .

وقد ذكر ربنا في السورة أمثلة لما قذف به من الحق على الباطل ، فقد ذكر في أكثر من موطن أنه أهلك الظالمين والمسرفين ومن استحق العقوبة فقذف الحق على الباطل فدمغه .

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٢٠ وانظر مفردات الراغب (قذف) .

قال تعالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

فذكر أنه أهلك القرى بسبب عدم إيمانها.

وقال: ﴿ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

وقال: ﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ ﴿١١﴾ ﴾

وقال: ﴿ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

وذكر قذف الحق على الباطل بالحجة والبرهان فقال: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وقال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

فناسب ذلك قوله: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ ﴾.

جاء في (الكشاف): «(بل) إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته... بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق.

واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرًا لإبطاله وإهداره ومحقه، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه» [١].

وجاء في (تفسير أبي السعود): «وقد استعير لإيراد الحق على الباطل القذف الذي هو الرمي الشديد بالجرم الصلب كالصخرة، ولمحقه للباطل الدمغ الذي هو كسر الشيء الرخو الأجوف وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدي إلى زهوق الروح تصويرًا له بذلك...

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٣، البحر المحيط ٦ / ٢٨٠.

وفي (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفى فكأنه زاهق من الأصل» (١).

﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾

هو تهديد ووعيد بالهلاك لأهل الكفر بسبب ما يصفونه به سبحانه من أمور لا تجوز ولا تليق بشأنه.

و(من) في (مما) تعليلية.

و(ما) في (ما تصفون) تحتمل الموصولة، أي بالذي يصفونه به سبحانه، وتحتمل المصدرية، أي بوصفهم له سبحانه بما لا يليق.

جاء في (روح المعاني): «﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾: و(ما) إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة، أي ومستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له تعالى بما لا يليق بشأنه الجليل تعالى شأنه، أو بالذي تصفونه، أو بشيء تصفونه به من الولد ونحوه» (٢).

* * *

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ذكر قبل هذه الآية أنه خلق السماء والأرض وما بينهما فذلك يعني أنها ملكه، وذلك قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾

وذكر في هذه الآية أن له من فيهما وذلك قوله: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٢.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٢٠ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٢.

فالسماوات والأرض وما بينهما ومن فيهما ملكه .

وذكر في أوائل السورة أنه يعلم القول فيهما ما أسروه وما جهروا به فقال : ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ .

وذكر أن من عنده من الملائكة يعبدونه لا يكلّون ولا يملّون ، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا ينقطعون عن التسبيح .

جاء في (الكشاف) : «أي تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر» [١] .

قد تقول : لقد قال هنا : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

وقال في سورة فصلت : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

وقال في سورة الأعراف : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ .

فقال في الأنبياء : ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ .

وقال في فصلت : ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ ﴾ .

وقال في الأعراف : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ .

فقال في الأنبياء : ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ بذكر (من) .

وقال في فصلت والأعراف (الذين عند ربك) بذكر (الذين) .

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٣٤ .

وفي تعبير آخر :

قال في الأنبياء : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ .

وقال في فصلت : ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ .

وقال في الأعراف : ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُۥ ﴾ .

فأطلق التسبيح في الأنبياء ، وقيده بحرف الجر في فصلت ، وقيده بالمفعول به في الأعراف .

فما سر هذا الاختلاف؟

والجواب أن كل تعبير مناسب لسياقه وما أريد له من معان .

وذلك أن آية الأنبياء أعم من الموضعين الآخرين من جهات عدة منها :

١ ـ أنه قال في آية الأنبياء : ﴿ وَمَنۡ عِندَهُۥ ﴾

وقال في فصلت : ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾

وقال في الأعراف : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾

و(من) أعم من (الذين) لأنه اسم موصول مشترك ، و(الذين) مختص . فـ (من) يطلق على الواحد والمثنى والجمع ، المذكر والمؤنث ، بخلاف (الذين) فإنه خاص بجماعة الذكور .

هذا إضافة إلى أنه مناسب لما تقدم في الآية من قوله : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ ، فناسب عموم من في السماوات والأرض عموم من عنده ، وناسب ذكر (من) في الموضعين .

أما في فصلت فقد خاطب الناس أو جماعة منهم بقوله : ﴿ لَا تَسۡجُدُواْ

لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

ولا شك أن قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أعم من هؤلاء. فجاء بالاسم الموصول المختص مناسبة للخصوص.

وكذلك ما ورد في الأعراف، فإن قبل الآية قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

ولا شك أن ما ورد في الأنبياء أعم بكثير من المخاطبين في الأعراف.

فجاء بالاسم الموصول المختص في الأعراف مناسبة للخصوص.

وهذا من لطيف المناسبات.

٢ ـ وقال في الأنبياء: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾

وقال في فصلت: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾

وقال في الأعراف: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾

و(يسبحون) أعم من (يسبحون له) و(يسبحونه)؛ لأنه غير مقيد، فهو يشملهما ويشمل غيرهما من أنواع التسبيح من نحو: (سبح اسمه) و(سبح باسمه) و(سبح بحمده) وغير ذلك من أنواع التسبيح.

٣ ـ قال في الأنبياء: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يكلّون ولا يتعبون، فدل ذلك على دوام العبادة وعدم انقطاعها.

ولم يقل مثل ذلك في الموضعين الآخرين.

ولا شك أن ما في آية الأنبياء أعم وأدوم.

٤ ـ قال في الأنبياء: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي على الدوام لا ينقطعون.

وقال في فصلت: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي في هذين الوقتين. فما في الأنبياء أدوم.

ولم يذكر في الأعراف وقتًا للتسبيح ولا للسجود وإنما ذكر الحدث فقال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾.

وهذا لا يدل على الدوام والاستمرار. فإنك إذا قلت: (أحمد يصلي) أو يقرأ القرآن فإن ذلك لا يدل على الاستمرار فيهما وأنه لا يقطع ذلك في وقت من الأوقات.

أما في الأنبياء فتنصيص على الدوام وعدم الانقطاع. فهو أعم.

٥ ـ قال في الأنبياء: ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾ فلا تحصل فترة منهم.

أي لا يسكّنون.

ولم يقل مثل ذلك في الموضعين الآخرين، فدل على دوام التسبيح.

وكل تعبير مناسب للسياق الذي ورد فيه.

فإن التخصيص في فصلت مناسب لما تقدمه وهو قوله: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

فهو طلب أمر مخصص وهو السجود لله.

وكذلك التخصيص في الأعراف فإنه مناسب لما تقدمه وهو قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

فهو طلب أمر مخصص وهو الاستماع للقرآن عند قراءته، وطلب الذكر من الرسول على الخصوص. ولا شك أن هذا أخص بكثير من عبادة

الملائكة المطلقة المستمرة وتسبيحهم الذي لا يفتر ولا ينقطع.

وأما آية الأنبياء فلم يتقدمها شيء من ذلك، وإنما تقدمها قوله سبحانه: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

والحق عام والباطل عام.

فناسب العموم في آية الأنبياء ما تقدمها.

وناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه.

* * *

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

أنكر عليهم في هذه الآية اتخاذ آلهة من الأرض، ثم أنكر عليهم اتخاذ آلهة من دون الله على العموم في آية بعدها فقال: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴿٢٤﴾ ﴾.

فأنكر اتخاذ الآلهة على العموم من الأرض أو من غيرها.

فهو إنكار على متخذي الآلهة من دون الله سواء اتخذوها من الأرض أم من غيرها.

وذكر الآلهة في الأرض لأن كفار قريش وهم الذين أنزل عليهم القرآن كانوا يعبدون الأصنام وهي حجارة.

وقد تقول: ولماذا لم يقل: (أم اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض) فيقول: (من دون الله) كما قال في آيات أخرى من نحو قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم: ٨١].

وقوله: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الفرقان: ٣] وكما قال في آية بعدها: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴿٢٤﴾ ﴾؟

فنقول: لما قال: ﴿ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ دل ذلك على أنها من دون الله.

ثم إن قوله: ﴿ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ مناسب لما ورد في السورة من إهلاك القرى الظالمة على الأرض وأهلها من نحو قوله تعالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۝٦﴾ وقوله: ﴿ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾، وقوله: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ۝١١﴾ فماذا فعلت الآلهة وإله السماء يدمر قرى الأرض وساكنيها من الظالمين الذين يعبدون هذه الآلهة؟!

ومناسب لما ورد في السورة من اتخاذ قوم إبراهيم آلهة من الأرض فحطمها إبراهيم وجعلها جذاذًا، فماذا فعلت هذه الآلهة المضحكة؟!

ومناسب لما ورد في السورة من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾.

فماذا تفعل هذه الآلهة في الأرض وإله السماء ينقص ما هم عليه حتى أتى عليهم كلهم وما هم عليه؟!

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في الآية شيئًا واحدًا لهذه الآلهة وهو قوله: ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ﴾، فلما كان الأمر جزئيًا ذكر جزءًا من الآلهة وهو الآلهة من الأرض.

في حين قال في آية بعدها: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۝٢٤﴾.

فلم يقل: (من الأرض) بل ذكر اتخاذ الآلهة على العموم، وذلك أن ما ذكره في الآية الثانية أمر عام غير مقيد بشيء.

فناسب العموم العموم، وناسب الخصوص الخصوص.

وقوله: ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي يبعثون الموتى من قبورهم.

وذكرُ الإنشار مناسب لقوله في أول السورة: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ

حِسَابُهُمْ﴾ ، ومناسب لقوله سبحانه في السورة: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ، وقوله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ، ولما ذكره في آخر السورة من الرجوع إلى الله والحساب والجزاء.

وهو تهكم بهم فإنهم لا يؤمنون بالحشر مع أنهم يؤمنون بالله كما ذكر الله عنهم في أكثر من موضع من نحو قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [الجاثية: ٣٢] ، وآيات أخرى.

جاء في الكشاف: «هذه أم المنقطعة الكائنة بمعنى: بل والهمزة ، قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها. . .

فإن قلت: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر وما كانوا يدّعون ذلك لآلهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى ، وذلك أنهم كانوا ـ مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السماوات والأرض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ، وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى ـ منكرين البعث ، ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم؟. . .

قلت: الأمر كما ذكرت ، ولكنهم بادعائهم لها الإلهية يلزمهم أن يدّعوا لها الإنشار ؛ لأنه لا يستحق هذ الاسم إلا القادر على كل مقدور ، والإنشار من جملة المقدورات.

وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل. . . ومعنى نسبتها إلى الأرض: الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض»[1].

* * *

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٤ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٣.

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

أي لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله لفسدتا. و(إلا) هنا وصفية بمعنى غير.

قد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فذكر (رب العرش).

وقال في موطن آخر: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وفي موضع آخر يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، الصافات: ١٥٩].

وفي موضع آخر يقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

وقال في موضع آخر: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢].

فما السر في ذلك؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب للموضع الذي ورد فيه.

أما قوله في آية الأنبياء: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ فإنه ذكر رب العرش لما تقدم من ذكر الذين عنده أنهم يسبحون الليل والنهار وهم الملائكة فناسب ذكر العرش.

وأما قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فإنه يقول ذلك إذا ذكر أمرًا واحدًا كأن يذكر قول المشركين باتخاذ الولد، فإذا ذكر معه الشرك أضاف إلى ذلك قوله (تعالى)، فيضيف تنزيهًا آخر إلى ما ذكر.

فالشيء الواحد يذكر له تنزيهًا، فإذا زاد عليه ذكر تنزيهًا آخر.

هذا إضافة إلى ذكر صفات أخرى تناسب المقام.

وإيضاح ذلك:

أنه سبحانه قال في سورة الصافات: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ... أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ... وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لما ذكر شيئًا واحدًا وهو اتخاذ الولد.

وقال في الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ لما ذكر أمرين:

الشرك وذلك قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾.

واتخاذ الولد وذلك قوله: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ ... أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾.

وقال في المؤمنون: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وقال بعدها: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وذلك أنه ذكر أمرين:

اتخاذ الولد وهو قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾.

ونفي الشرك وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾.

وأما قوله في الصافات: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فهو مناسب للسياق الذي وردت فيه الآية وذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾.

فالسياق ـ كما هو ظاهر ـ في نصر المؤمنين وإنزال العذاب بالكافرين وذلك من مقتضيات العزة.

فإن العزيز هو الذي ينصر ويغلب فناسب ذلك أن يقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وقال: (سبحان ربك) بإضافة الرب إليه؛ لأنه المتفضل عليه وهاديه وهو الذي أرسله برسالته وقد وعده بالنصر وذلك قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ . . .﴾

فناسب أن يقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴿١٨٠﴾﴾

وأما قوله في الزخرف: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فهو مناسب لما ورد في سياقه.

فقد قال في الزخرف: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

فذكر اتخاذ الولد وهو قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ فذكر أنه الإله فيهما.

ثم قال: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا...﴾ فذكر أن له ملكهما.

وقدم الجار والمجرور (له) للحصر، فإنه له وحده ملك السماوات والأرض حصرًا لا يشاركه في ذلك أحد.

وقال في الآية: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فذكر أنه ربهما. فجمع السياق الدلالة على الربوبية والألوهية والملك فناسب أن يذكر أنه رب العرش فإن العرش للملك.

إضافة إلى ما ذكر بعد ذلك من صفات الكمال.

* * *

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

لما ذكر سبحانه أنه خلق السماء والأرض وما بينهما، وذكر أن له من في السماوات والأرض، وأن له القوة والعزة فأهلك القرى الظالمة وبطش بها، وأنه يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فلا تكون أفعاله إلا حقًّا ولا تصدر إلا عن حكمة، وأنه الإله في السماوات والأرض لا شريك له عُلم أنه لا يسأل عما يفعل وإنما هو الذي يسأل غيره، فكل من عداه عبد له مملوك وكلهم مسؤولون أمامه. فلا يُسأل لأنه الإله وأنه الخالق وأنه الملك وأنه المالك وأنه القوي العزيز وأن أفعاله كلها لا تصدر إلا عن حكمة، وإن كل واحدة من هذه الصفات لا يُسأل من اتصف بها عما يفعل فكيف إذا اجتمعت؟!

ثم إن هذه الآية مناسبة لما افتتحت به السورة وهو قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ

﴿لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فالناس مسؤولون أمامه وقد اقترب حسابهم.

ومناسبة للآية قبلها وهي قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

فهو الإله في السماوات والأرض لا شريك له، والإله لا يسأل عما يفعل.

وهو (رب العرش)، ورب العرش لا يسأل؛ لأن رب العرش هو الملك، والملك لا يُسأل عما يفعل وإنما هو الذي يسأل غيره. وقوله: (سبحان الله) يعني أنه المنزه في أفعاله وصفاته، والمنزه لا يسأل عما يفعل لأنه الكامل في ذلك.

جاء في (البحر المحيط): «ثم وصف نفسه بكمال القدرة ونهاية الحكم فقال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء، وفعله على أقصى درجات الحكمة فلا اعتراض عليه ولا تعقب عليه. ولما كانت عادة الملوك أنهم لا يسألون عما يصدر من أفعالهم مع إمكان الخطأ فيها كان ملك الملوك أحق بألا يسأل»[1].

* * *

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أنكر عليهم قبل هذه الآية اتخاذ آلهة من الأرض، وأنكر في هذه الآية اتخاذ الآلهة من دون الله على العموم. وقد أقام البرهان على فساد القول

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٥.

باتخاذ الآلهة فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

وطلب منهم أن يأتوا ببرهان على صحة قولهم باتخاذ الآلهة فقال لهم: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ سواء كان من جهة العقل أم النقل.

أما هو سبحانه فقد ذكر الحجة العقلية وهي قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، ثم تحداهم بالبرهان النقلي وهو الكتب المنزلة على الرسل سواء ما أنزل عليه أو ما أنزل على من قبله فقال لهم: ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ وهو ما أنزل إليه، و﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ وهو ما أنزل إلى من قبله من الأنبياء فإنها كلها تدعو إلى توحيد الله والنهي عن الشرك.

ثم أضرب فبين أن أكثرهم لا يعلمون الحق ولذلك هم معرضون عنه.

ثم ذكر في الآية التي تلي هذه الآية ماذا في ذكر من قبله وماذا أوحى إلى رسله فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

جاء في (الكشاف): «كرر ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استفظاعًا لشأنهم واستعظامًا لكفرهم، أي وصفتم الله تعالى بأن له شريكاً فهاتوا برهانكم على ذلك: إما من جهة العقل، وإما من جهة الوحي، فإنكم لا تجدون كتابًا من كتب الأولين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعو إليه، والإشراك به منهي عنه متوعد عليه. أي (هذا) الوحي الوارد في معنى توحيد الله ونفي الشركاء عنه كما ورد عليّ فقد ورد على جميع الأنبياء.

فهو ذكر، أي عظة للذين معي، يعني أمته، وذكر للذين من قبلي، يريد أمم الأنبياء عليهم السلام» (١).

* * *

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٥ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٥.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

هذه الآية وقعت في سياق ما قبلها من آي التوحيد وإبطال الشرك من مثل قوله سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾

ثم قال: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ فذكر في هذه الآية، أعني ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ. . .﴾ ماذا أوحى إليه في ذكر من قبله.

فذكر أن كل رسول أرسله ربنا سبحانه أوحى إليه ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

فبين أنه أوحى إليه بالتوحيد والأمر بعبادته سبحانه.

وقال: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ فجاء بـ(من) الدالة على الاستغراق، فدل ذلك على أن كل رسول أوحي إليه هذا الأمر بلا استثناء، فلم يستثن رسولاً من ذلك.

وقال: ﴿إِلَّا نُوحِىٓ﴾ بالمضارع، ولم يقل: (أوحينا) لحكاية الحال وذلك يدل على الاهتمام بما أوحى إليه.

جاء في (تفسير أبي السعود): «وأيّاً ما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارًا لصورة الوحي» [(١)].

بل إن التعبير في الآية كله دل على الاهتمام والتوكيد.

فالحصر في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ﴾ يفيد

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٦.

التوكيد ، وهو آكد من نحو قولنا : (وأوحينا إلى الرسل قبلك أنه لا إله إلا أنا) .

والنفي بـ (ما) في (ما أرسلنا) يفيد التوكيد ؛ لأن (ما) تكون جوابًا للقسم ، وهي آكد من (لم) .

وقال : (من قبلك) فجاء بـ (من) ، وهو آكد مما لو قال : (وما أرسلنا قبلك) ، فـ (من) تفيد الابتداء فاستغرقت كل من كان قبله .

وقد مر شيء من ذلك فيما ذكرنا .

وقال : (من رسول) فأدخل (من) الاستغراقية المؤكدة على المجرور فاستغرق ذلك جميع الرسل مع التوكيد كما ذكرنا قبل قليل .

وقال : (نوحي) بالمضارع لحكاية الحال وذلك يدل على الاهتمام كما ذكرنا .

وقال : (أرسلنا) و(نوحي) بالإسناد إلى ضمير التعظيم .

ووردت قراءتان متواترتان في (نوحي) هما (نوحي) و(يوحَى) بالبناء للمجهول[1] فجمعت معنيين وصيغتين .

وقال : (أنه) بإدخال (أن) على ضمير الشأن الدال على التعظيم والاهتمام ، ولم يقل : (أن لا إله إلا أنا) بحذف ضمير الشأن . ومن المعلوم أن الذكر آكد من الحذف .

إنه لم يقل كما قال في غير هذا الموطن (أن لا إله إلا هو) وذلك نحو قوله تعالى في سورة هود : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

---

(١) انظر البحر المحيط ٢ / ٣٠٦ وروح المعاني ١٧ / ٣٢.

فقال: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولم يقل: (وأنه) كما قال في آية الأنبياء.

وكما قال في سورة الأنبياء في موضع آخر: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾.

وذلك أن آية هود في سياق الدلالة على أن القرآن ليس مفترى وإنما هو من عند الله. في حين أن السياق في آية الأنبياء إنما هو في سياق التوحيد ونفي الشرك.

فلما كان السياق في التوحيد أكد وعظم بذكر ضمير الشأن.

كما أن آية الأنبياء الأخرى ليست في سياق التوحيد، وإنما هي في سياق التسبيح والدعاء والإقرار بما فعل من خلاف الأَولى فقال: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ ولم يقل (أنه).

وكل تعبير مناسب في سياقه الذي ورد فيه.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ كله مؤكد.

وقوله: (فاعبدون) أمر بعبادة الله وهي الغاية التي خلق لها الثقلان كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾:

إن قوله: (فاعبدون) أمر للجمع مع أن الموحى إليه واحد، فلم يقل: (إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدني) ذلك أن الأمر له ولمن أرسل إليهم على الأظهر. جاء في (البحر المحيط) في قوله: (فاعبدون): «ويحتمل أن يكون الأمر له ولأمته»[1].

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٦ وانظر روح المعاني ١٧ / ٣٢.

قد تقول: لقد قال في سورة النحل: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾.

فأمر في هذه الآية بالتقوى فقال: ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾.

وأمر في آية الأنبياء بالعبادة فقال: ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

فما سر الاختلاف في ذلك؟

فنقول: إنه قال في آية النحل (أن أنذروا)، والإنذار يقتضي اتقاء ما أُنذروا به. فالنذير يخوفهم من أمر عليهم أن يتقوه، فناسب ذلك قوله: (فاتقون).

وأما آية الأنبياء فإنها في توحيد الله وعبادته، وهي في سياق إفراده بالعبادة والتوحيد وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾، وقوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾، وقوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾.

وقال في موضع آخر من السورة: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾، وتكرر ذكر العبادة في السورة.

وناسبت آية النحل ـ إضافة إلى ما ورد فيها من ذكر الإنذار ـ ختام ما ورد في السورة وهو قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

كما تكرر ذكر الاتقاء في أكثر من موضع في السورة وذلك نحو قوله: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾، وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ وغيرها.

فناسب كل تعبير ما ورد فيه من أكثر من جهة.

وقد تقول: لقد قال في سورة الإسراء: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

فقال: (قبلك) ولم يقل: (من قبلك) كما قال في آية الأنبياء فما سبب ذلك؟

والجواب أنه قال قبل آية الإسراء: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾، ثم قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

والعقوبة التي ذكرها في قوله: ﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إنما حصلت قبل الرسول بزمن طويل، فإنها لم تحصل لقوم عيسى، وإنما حصلت لفرعون ومن معه حين اتبع موسى بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم، وحصلت للأقوام القديمة كعاد وثمود وغيرهم من الأقوام في الأزمان السحيقة.

إن هذا الأمر لم يحصل ابتداء من زمن الرسالة قبل بعثة الرسول، وإنما حصل قبل ذلك بما لا يعلمه إلا الله، فلم يقل: (من قبلك) بـ (من) التي تفيد ابتداء الغاية، وإنما قال: (قبلك) وهو ما يدل على عموم الزمن قبله فقد يكون ذلك قريبًا أو بعيدًا.

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه والله أعلم.

* * *

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

نزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد، ذلك أن من الكفار من قال: (ولد الله) كما ذكر ذلك عنهم في سورة الصافات فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ

لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

ومنهم من قال: إن الملائكة بنات الله، فرد عليهم سبحانه بقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١ ـ ٢٢].

وقال: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

وقال في آية الأنبياء هذه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ وقد قيل: إن هذه الآية «نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله. نزه ذاته عن ذلك، ثم أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة» [١]. وقيل: إن بعض العرب من غير خزاعة قالوا ذلك أيضًا[٢].

فذكر أن الملائكة هم عباد لله.

ثم وصف هؤلاء العباد بأنهم مكرمون مصطفون؛ لأن من العباد من ليس بمكرم كما ذكر سبحانه عن قسم من عباده الضالين فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧].

ثم ذكر أن هؤلاء العباد المكرمين لا ينطقون بشيء قبله سبحانه، فهم لا يتقدمونه بقول. وإنه سبحانه إذا أمر بشيء فإنهم يعملون بأمره. وقدم الجار والمجرور فقال: ﴿بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ للدلالة على أنهم لا يعملون بأمر غيره وإنما يعملون بأمره خاصة.

جاء في (نظم الدرر): «(وهم بأمره) أي خاصة إذا أمرهم (يعملون) لا بغيره لأنهم في غاية المراقبة له، فجمعوا في الطاعة بين القول والفعل وذلك غاية الطاعة» [٣].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٦ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣٠٧.

(٢) انظر روح المعاني ١٧ / ٣٢.

(٣) نظم الدرر ١٢ / ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

وجاء في (تفسير أبي السعود) في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ ، «بيان لتبعيتهم له تعالى في الأعمال إثر بيان تبعيتهم له في الأقوال. فإن نفي سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه. كأنه قيل هم بأمره يقولون وبأمره يعملون لا بغير أمره أصلاً. فالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور معتبر بالنسبة إلى غير أمره لا إلى أمر غيره»[١].

ولئلا يظن أنهم قد يتركون شيئًا من أمره ذكر أنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، أي ما تقدم من أفعالهم وأقوالهم وما تأخر ، وما عملوا وما لم يعملوا بعد[٢].

ثم ذكر أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله ، فهم لا يسبقونه بقول ولا يشفعون إلا لمن علموا أن الله يرتضي ذلك.

ثم ذكر أنهم في خوف منه ومراقبة له سبحانه لا يأمنون مكره.

وقال: (مشفقون) ولم يقل: (يشفقون) ليدل على أن ذلك وصفهم الدائم الثابت.

ومع هذا الثناء عليهم فذلك لا يمنع من أن يعذبهم إذا تجاوزوا الحد فقال: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ﴾ . وهذا لا يخصهم وحدهم بل يشمل كل ظالم فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

وقد مر قبل هذه الآية ذكر لعقوبات الظالمين من نحو قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴿١١﴾﴾ .

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٧.

(٢) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٠٧.

وقوله: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥ ﴾.

جاء في (الكشاف): «(لا يسبقونه)... والمعنى أنهم يتبعون قوله ولا يقولون شيئًا حتى يقوله، فلا يسبق قولهم قوله... أي لا يتقدمون قوله بقولهم... وكما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضًا كذلك مبني على أمره، لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به...

ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب العظيم. ثم إنهم مع هذا كله من خشية الله (مشفقون) أي متوقعون من أمارة ضعيفة، كائنون على حذر ورقبة لا يأمنون مكر الله...

وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده وأثنى عليهم... فاجأ بالوعيد الشديد، وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل» (١).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «(مشفقون) مرتعدون. وأصل الخشية الخوف مع التعظيم ولذلك خص بها العلماء. والإشفاق الخوف مع الاعتناء.

فعند تعديته بـ(من) يكون معنى الخوف فيه أظهر، وعند تعديته بـ (على) ينعكس الأمر» (٢).

وجاء في (روح المعاني): «﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾) وفرق بين الخشية والإشفاق بأن الأول خوف مشوب بتعظيم ومهابة ولذلك خص به

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٦.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٧.

العلماء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ »[(١)] .

وفي (التحرير والتنوير) : «الإشفاق توقع المكروه والحذر منه»[(٢)] .

لقد جاء نحو هذا التعبير في عدة مواضع من القرآن الكريم ، غير أنه لم يكن التعقيب واحدًا ، بل ذكر في كل موضع نوعًا من التعقيب والتبيين يختلف عما ذكر في المواضع الأخرى .

وأول موضع ورد فيه نحو هذا التعبير ما جاء في سورة البقرة وهو قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

فرد عليهم بأن له ما في السماوات والأرض وأنهم كلهم خاضعون له ، وأنه أبدع السماوات والأرض وأوجدهما وأنه على كل شيء قدير ، فإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ، فلا يحتاج إلى الولد ، فهو الغني المستغني المقتدر فلماذا يتخذ ولدًا؟

فرد عليهم بغناه وقدرته ، غير أنه لم يذكر فظاعة هذه الكلمة ولا ماذا ستكون عاقبة الذين يقولون بهذا القول .

ثم ورد نحو هذا التعبير في سورة يونس فقال : ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ . . . قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٣٣ .

(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ٥٢ .

يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

فذكر قبل الآية أن له من في السماوات ومن في الأرض فلماذا يتخذ الولد؟

ثم ذكر أنه الغني ، ولم يقل: (إنه غني) بل ذكر أنه الغني ولا غني غيره ، فإن له ما في السماوات وما في الأرض ، فكرر (ما).

ففي آية البقرة لما لم يذكر أنه الغني لم يكرر (ما) ، وإنما قال: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ولما قال في آية يونس: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ كرر (ما) فقال: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للتوكيد والتوسع في ذكر الغنى.

ثم رد على القائلين بهذا القول بأنهم ليس عندهم سلطان بهذا وأنهم يقولون على الله ما لا يعلمون.

وألمح إلى أن هذا من الافتراء على الله ، وأنه سيعاقب الكافرين ، وهذه إشارة إلى أن القول بهذا إنما هو كفر.

ولم يرد مثل ذلك في البقرة. وهي مرحلة بعد الذكر الأول.

ثم ذكر القائلين بهذا في سورة الكهف وأنه ينذرهم فليحذروا فقال: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

فإنه بعد أن ذكر القائلين في موضعين ناسب أن ينذرهم بعد ذلك فقال: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾.

فتدرج في القول فلم يذكر في يونس أنه سيعذب القائلين بهذا بصورة مباشرة ، وإنما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾

فذكر عموم الافتراء على الله ، وليس ذلك خاصًّا بهذا القول .

وأما في آية الكهف فإنه أنذر الذين يقولون هذا القول بصورة مباشرة ، وأنه نفى العلم عنهم وعن آبائهم ، ثم عظم هذه المقالة وأنها كبيرة فقال : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ .

وصرح بأن هؤلاء لم يقولوا إلاّ الكذب .

ولم يذكر غناه فاكتفى بما مر من ذلك ، وإنما ذكر أمرًا آخر وهو الإنذار المباشر وعظم هذه المقالة وكذبها .

ثم قال في سورة مريم : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ .

فإنه قبل هذا الموطن ذكر كذب هذا القول وأن هذه الكلمة كبيرة ، أما ههنا فقد فصل في هذا القول وذكر أنه عظيم ثقيل تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا .

ولم يذكر نحو هذا فيما سبق ، وإنما ألمح إلى أنه كذب ، ثم صرح بأنه كذب ، وذكر قبل هذه السورة أن هذه الكلمة كبرت تخرج من أفواههم .

أما ههنا فأنت تلاحظ أنه عظّم هذه المقالة في السماوات والأرض والجبال وفظّعها ، وأن كل من في السماوات والأرض إنْ هم إلا عبيد له .

ومن الملاحظ في هذه الآية أنه ذكر اسمه (الرحمن) ولم يذكر لفظ الجلالة (الله) كما في الآيات السابقة . ولعل ذلك لأنه لم يذكر تهديدًا لمن قال هذا القول .

ثم إن سورة مريم تردد فيها اسم الرحمن كثيرًا ، وهي أكثر سورة تردد فيها هذا الاسم الجليل. فناسب ذلك من جهة أخرى.

ثم ذكر في سورة الأنبياء نحو ذلك فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

فذكر صفة هؤلاء الذين قالوا فيهم إنهم اتخذهم الرحمن ولدًا فذكر أنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون كما ذكرنا.

ولم يعد ما ذكره في المواطن السابقة ، بل ذكر شيئًا آخر وهو صفة الملائكة هؤلاء. وهو أمر لم يذكره في المواطن الأخرى.

وقد ذكر ههنا اسمه (الرحمن) كما في آية مريم ، ولعل سبب ذلك أنه لم يذكر تهديدًا لمن قال هذا القول ، وهو المناسب لاسمه الرحمن.

ومن الملاحظ في هذه الآيات أنه إذا ذكر اسمه (الله) فهو إما يذكر غناه أو يذكر إنذارًا لمن قال هذا القول أو يذكرهما معًا.

ففي سياق آية البقرة قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴿١١٥﴾ ﴾.

وقال: ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ وأنه بديع السماوات والأرض.

ثم إنه لم يرد في سورة البقرة اسمه (الرحمن) إلا في موضع واحد وهو قوله: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

بخلاف اسم (الله) الذي تردد فيها كثيرًا.

وفي آية يونس ذكر غناه وأشار إلى التهديد والإنذار فقال: ﴿ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

ثم ذكر عاقبة هؤلاء الكفرة فقال: ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ .

وأنذر في آية الكهف من قال بهذا القول فقال: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ .

ولم يذكر تهديدًا أو غنى مع اسمه (الرحمن) في آيتي مريم والأنبياء. فلم يكرر ما ورد من هذا الأمر وإنما ذكر في كل موطن أمرًا يتناسب مع المقام والسياق والتدرج في شأن المقالة والقائلين.

* * *

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

أي ألم يتفكروا أوَلم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا مرتوقتين أي لاصقة إحداهما بالأخرى ففصلنا الأرض عن السماوات؟

وقال: (رتقًا) دون (مرتوقتين) لأن (رتقًا) مصدر ، والمصدر يخبر به عن المفرد وغيره كما يقال: رجل عدل ورجال عدل. ورجل صوم وامرأة صوم ورجال صوم.

وأخبر به عنهما للمبالغة.

والرؤية قلبية ، أي: ألم يعلموا[1]؟ .

قد تقول: لعلهم لم يكونوا يعلمون ذلك.

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ، روح المعاني ١٧ / ٣٤.

فنقول: إن ذلك يقال لمن يعلم أو لإعلام من لم يكن يعلم. كما تقول لصاحبك: (ألم تعلم أن فلانًا حصل على جائزة؟) وهو لا يعلم ذاك وإنما أردت إخباره، وهذا جارٍ كثير في اللغة.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ١٨].

وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١].

وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨].

وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهو إنما يخبره بذلك.

ونحو هذا كثير في القرآن الكريم.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾.

أي «صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه» [١]، فالماء هو سبب الحياة.

فبدأ بذكر الحالة الأولى لوجود الكون وهي أن السماوات والأرض كانتا ملتحمتين لاصقة إحداهما بالأخرى ففصلهما.

ثم ذكر أصل الحياة وما يسبق الحياة، ثم جعل الأشياء حية بسبب الماء.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٧.

فذكر حالتين متناظرتين:

ما يسبق هذا الكون المشاهد.

وما يسبق وجود الأحياء.

وهو تناظر جميل.

ولما ذكر في أول الآية الذين كفروا فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ختمها بدعوتهم إلى الإيمان فقال: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وجاء بالفاء الدالة على السبب في قوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ألا يكون ذلك سببًا لايمانهم؟!

* * *

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾

الرواسي من الجبال: الثوابت الرواسخ[1].

ومن لطائف التعبير القرآني أنه لا يعبر بالرواسي في أحداث القيامة، بل يعبر عنها بالجبال وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠]، وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

وذلك لأنها لم تعد رواسي. وإنما خص التعبير بـ (الرواسي) في الحياة الدنيا، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا﴾ [النحل: ١٥].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠].

---

(١) انظر لسان العرب (رسا).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

أما التعبير بالجبال فهو عام، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١].

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾.

أي لئلا تميد وتضطرب[١].

ومن لطائف التعبير في القرآن أن نفي الميد يجعله مع لفظ (الرواسي) دون غيرها فلم يجعله مع لفظ الجبال، ذلك أن معنى الرواسي ـ كما ذكرنا ـ هو الثوابت الرواسخ، فهي تثبت الأرض لئلا تميد.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾.

الفج: الطريق الواسع بين جبلين، وقيل: هوالطريق الواسع في الجبل[٢]، وقيل: هو الطريق الواضح الواسع[٣].

والسبيل: الطريق الذي فيه سهولة[٤].

وجمع بين الفجاج والسبل لإفادة معنى السعة والسهولة واليسر وذلك من تمام النعمة.

جاء في (روح المعاني): «(فجاجًا) جمع فج، قال الراغب: هو شقة يكتنفها جبلان. وقال الزجاج: كل مخترق بين جبلين فهو فج. وقال بعضهم: هو مطلق الواسع سواء كان طريقًا بين جبلين أم لا...

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٢٧.
(٢) انظر لسان العرب (فجج).
(٣) المصباح المنير (الفج)، وانظر الكشاف ٢ / ٣٢٧.
(٤) انظر مفردات الراغب (سبل).

وقوله سبحانه: (سبلاً) بدل منه. فيدل ضمنًا على أنه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التأكيد ؛ لأن البدل كالتكرار وعلى نية تكرار العامل ، والمبدل منه ليس في حكم السقوط مطلقًا. . . .

[وقيل]: إن (سبلاً) عطف بيان وهو سائغ في النكرات حيث قال: هو تفسير للفجاج وبيان أن تلك الفجاج نافذة، فقد يكون الفج غير نافذ»[(١)].

قد تقول: لقد قدم الفجاج على السبل ههنا ، وقدم السبل على الفجاج في سورة نوح فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

فنقول: لما ذكر الرواسي في آية الأنبياء ناسب تقديم الفجاج على السبل ؛ لأن الفج هو الطريق في الجبل كما ذكرنا.

ولما قال (بساطاً) في سورة نوح قدم السبل وهي الطرق الميسرة السهلة[(٢)].

﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

أي يهتدون في سيرهم أو يهتدون إلى الإيمان بالله ، فإن هذه من الآيات التي تهدي إلى الإيمان.

وكلا الأمرين مطلوب ، فإن الجبال من وسائل الهداية في السير ، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥ ـ ١٦].

وهي من الآيات الدالة على توحيده وقدرته سبحانه. قال تعالى:

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٣٨.
(٢) انظر التعبير القرآني ٦٣.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ١٩].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

جاء في (التحرير والتنوير): «وجملة ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ مستأنفة إنشاء رجاء اهتداء المشركين إلى وحدانية الله، فإن هذه الدلائل مشاهدة لهم واضحة الدلالة.

ويجوز أن يراد بالاهتداء الاهتداء في السير، أي جعلنا سبلاً واضحة غير محجوبة بالضيق إرادة اهتدائهم في سيرهم فتكون هذه منة أخرى»(١).

* * *

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾

ذكر في آية سابقة أن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقهما.

ثم بدأ بما يتعلق بالأرض وأهلها، فذكر أنه جعل من الماء كل شيء حي.

ثم ذكر أنه جعل في الأرض رواسي لئلا تميد بأهلها وجعل فيها فجاجًا سبلاً لعلهم يهتدون.

ثم انتقل في هذه الآية إلى ذكر السماء فقال:

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ٥٧.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ أي محفوظًا من الوقوع على الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج : ٦٥] .

ومحفوظًا من الشياطين كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر : ١٦ ـ ١٨] .

وجعل فيها ما يحفظها كما ذكر سبحانه : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات : ٦ ـ ٧] .

فهي سقف محفوظ بأمر الله سبحانه من كل ما يمنع من الحفظ .

وهم عن آياتها وما أودع الله فيها من دلائل من شمس وقمر ونجوم وأحوال معرضون لا يتدبرون فيها .

جاء في (الكشاف) : «(محفوظاً) حفظه بالإمساك بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل ، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة .

(عن آياتها) أي عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات ومسايرها وطلوعها وغروبها» (١) .

وجاء في (التفسير الكبير) للفخر الرازي : «قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ عما وضع الله تعالى فيها من الأدلة والعبر في حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٧ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٠ .

الحكمة البالغة والقدرة الباهرة»[١].

* * *

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

لما قال في الآية السابقة: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ذكر شيئًا من آياتها في هذه الآية، فذكر الليل والنهار وآيتيهما وهما الشمس والقمر. فالشمس آية النهار، والقمر آية الليل.

وقدم الليل على النهار لسبقه، وقدم الشمس على القمر لسبقها.

فالليل أسبق في الوجود من النهار، والشمس أسبق في الوجود من القمر.

لقد قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي هو لا غيره، فإن هذا التعبير يفيد القصر.

وقال: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فجاء بضمير الجمع للإشارة إلى كل ما يسبح في فلكه في السماء فنوّن (كل)، والتنوين في (كل) يفيد العموم، ولو أضاف أو بيّن بمن فقال: (وكل منهما) لتخصص الكلام بهما.

جاء في (التحرير والتنوير): «وضمير (يسبحون) عائد إلى عموم آيات السماء وخصوص الشمس والقمر»[٢].

وقال: (يسبحون) بضمير العقلاء، ولم يقل: (يسبحن) أو (تسبح) لأن السباحة من أفعال الآدميين. وهذه الآية نظير قوله سبحانه في سورة يس: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

---

(١) التفسير الكبير ٢٢ / ١٤٠.
(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ٦٠.

وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

جاء في (نظم الدرر): «ولما ذكر السماء ذكر ما ينشأ عنها فقال: (وهو) أي لا غيره ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ثم أتبعهما آيتيهما فقال: (والشمس) التي هي آية النهار وبها وجوده. (والقمر) الذي هو آية الليل»[1].

وجاء في (الكشاف): «(كل) التنوين فيه عوض من المضاف إليه، أي كلهم ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. والضمير للشمس والقمر، والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة، جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها... وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة»[2].

وجاء في (البحر المحيط): «وجاء (يسبحون) بواو الجمع العاقل. فأما الجمع فقيل ثم معطوف محذوف وهو (والنجوم) ولذلك عاد الضمير مجموعًا، ولو لم يكن ثم معطوف محذوف لكان (يسبحان) مثنى...

وأما كونه ضمير من يعقل ولم يكن التركيب (يسبحن) فقال الفراء: لما كانت السباحة من أفعال الآدميين جاء ما أسند إليهما مجموعًا جمع من يعقل كقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾»[3].

* * *

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وذلك من حكمته سبحانه الذي جعل من الماء كل شيء حي، وجعل

---

(١) نظم الدرر ١٢ / ٤١٦.

(٢) الكشاف ٢ / ٣٢٧.

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣١٠. وانظر روح المعاني ١٧ / ٣٩.

في الأرض رواسي أن تميد بهم ، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر .

والليل يمضي ولا يعود إلى يوم القيامة ويأتي بعده ليل آخر .

والنهار يمضي ولا يعود إلى يوم القيامة ويأتي بعده نهار آخر .

والبشر يموت ولا يعود إلى يوم القيامة فيبعثه الله ويحاسبه .

فلم يجعل لبشر من قبله الخلد .

ونفى الفعل بـ (ما) ولم ينفه بـ (لم) لأن (ما) آكد من (لم) .

وإذا تربصوا بك ريب المنون فمتّ أفهم خالدون في الدنيا؟

وقال : ﴿ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ ولم يقل : (فهم خالدون) وذلك للحصر ، أي : أفهم الخالدون دون غيرهم من البشر الذين قضى الله أن لم يجعل لأحد منهم الخلد .

لقد قال ههنا : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ فقال : (الخلد) ولم يقل : (الخلود) ، فإن القرآن الكريم يستعمل (الخلد) كثيرًا ، واستعمل (الخلود) في موطن واحد وذلك قوله سبحانه : ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق : ٣٣ ـ ٣٤] .

واستعمل (الخلد) فيما عدا ذلك وذلك نحو قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ [يونس : ٥٢] .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت : ٢٨] .

وقوله : ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الفرقان : ١٥] .

فاستعمل (الخلد) لمن هم أقل عددًا ممن ذكر في آية (ق) .

فقد قال في (ق) : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ ويوم الخلود ليس خاصًّا بمؤمن أو كافر ، بل كلهم يشملهم ذلك اليوم فهو يوم الخلود للجميع سواء كان من

أهل الجنة أم من أهل النار.

قد تقول: ولكن الكلام على المتقين فقد قال سبحانه في سياق الآية: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ . . . ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

فنقول: لم يقل: (تلك دار الخلود) أو (جنة الخلود) في إشارة إلى الجنة، وإنما قال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾، وهو وإن بشرهم بالخلود في خطابه لهم غير أن التعبير بيوم الخلود لا يخصهم وحدهم. فيوم الخلود ليس خاصًّا بصنف دون صنف وإنما هو عام لكل المكلفين.

هذا إضافة إلى أنه ورد في السياق ذكر أهل النار وأهل الجنة. وأما (الخلد) فلم يستعملها إلا مخصصة بصنف دون آخرين. فقد قال: ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ﴾ وهذا خاص بالكافرين.

وقال: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ﴾ وهذا خاص بالمؤمنين.

فاستعمل (الخلود) التي هي أكثر حروفًا من (الخلد) لمن هم أكثر عددًا. فـ (خلود) أربعة أحرف، و(خلد) ثلاثة أحرف.

فناسب بين القلة والكثرة في بناء المفردة والمكلفين.

وكذلك الأمر في آية الأنبياء هذه وهي قوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾، فالبشر هنا يعني واحدًا من الناس، وحتى إذا قصد بها مجموعة من الناس فهم قلة بالنسبة إلى مجموع البشر. وهذا من لطائف التعبير.

لقد قال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ فأسند الجعل لنفسه سبحانه فهو الذي قضى بذلك وقدره.

ثم بين ذلك بقوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾

فلا تنجو نفس من الموت بل لا بد أن تذوقه.

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾

«أي نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم...

و(فتنة) مصدر مؤكد لـ (نبلوكم) من غير لفظه» [١].

ويحتمل أيضًا أن تكون (فتنة) مفعولاً لأجله، أي (لنفتنكم)، كما يحتمل أن تكون حالاً أي: فاتنين لكم، بمعنى: مختبرين لكم، كما يحتمل أن تكون مفعولاً مطلقًا مؤكدًا من غير لفظ الفعل كما ذكر صاحب الكشاف.

وجاء بالمصدر ليحتمل المعاني الثلاثة: المصدر المؤكد والمفعول له والحال وهو من التوسع في المعنى.

و«قدم الشر لأن الابتلاء به أكثر... وعن ابن عباس: الخير والشر هنا عام في الغنى والفقر، والصحة والمرض، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال...

والظاهر أن المراد من الخير والشر هنا كل ما صح أن يكون فتنة وابتلاء...

وانتصب (فتنة) على أنه مفعول له، أو مصدر في موضع الحال، أو مصدر من معنى نبلوكم...

﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فنجازيكم على ما صدر منكم في حالة الابتلاء من الصبر والشكر وفي غير الابتلاء» [٢].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٨.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣١١ وانظر روح المعاني ١٧ / ٤٧.

«وأكد فعل البلاء بمصدر من معناه مقرون بالهاء تعظيمًا له فقال: (فتنة) أي كما يفتن الذهب إذا أريدت تصفيته بمخالطة النار له»(١).

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي لا إلى غيرنا فنحاسبكم ونجزيكم على ما قدمتم.

وهذا التعقيب مناسب لمفتتح السورة وهو قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

ولما ذكره في آخر السورة من عاقبة الكافرين والمؤمنين.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

وقال في سورة العنكبوت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

فلم يقل في آية العنكبوت: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) كما قال في آية الأنبياء.

وقال في آية الأنبياء: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بالواو.

وقال في آية العنكبوت: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بثم.

فلم ذاك؟

أما إنه لم يقل في آية العنكبوت: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) فقد قيل: إنه «لما تقدم أول سورة العنكبوت ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الآيتان: ٢ ـ ٣] أغنى ذلك عن (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) في آية العنكبوت فحذف منها»(٢).

---

(١) نظم الدرر ١٢ / ٤١٨.

(٢) حاشية البرهان للكرماني ذات الرقم ١١ ص ٢٤٠.

وهو توجيه مقبول .

وأما قوله في آية الأنبياء : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

وقوله في آية العنكبوت : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

فلأن آية الأنبياء ـ والله أعلم ـ هي في الرجوع إلى الله عند الموت أو في القيامة .

وأما آية العنكبوت فهي فيما بعد ذلك وهو دخول الجنة أو النار .

يدلك على ذلك سياق آيات العنكبوت ، فهو في ذكر من يدخل النار ومن يدخل الجنة . قال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ

فعله. أو يشهدون العقوبة التي سننزلها به[١] «فيكون ذلك زاجرًا لهم عن الإقدام على مثل فعله»[٢].

وقيل: إن «المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله ويشهدون عقابه»[٣].

وهو الظاهر، وحذف مفعول (يشهدون) ليجمع أكثر من وجه، والله أعلم.

* * *

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

أي فأتوا به فسألوه، فحذف ما هو معلوم وليس في ذكره فائدة وإنما ذكر ما هو أهم.

قالوا: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا ﴾ ولم يقولوا: (أفعلت هذا) لأن السؤال عمن فعل الفعل، وليس السؤال عن الفعل أوقع أم لم يقع، كيف وقد أشير إلى الفعل بقوله: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا ﴾.

تقول: (أأنت ضربت زيدًا؟) إذا كان الضرب حاصلاً فتسأل عمن أوقعه فتقول: أأنت فعلت؟

وتقول: (أضربت زيدًا؟) إذا كان السؤال عن الفعل أحصل أم لم يحصل.

جاء في (البحر المحيط): «﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ ﴾: إذا تقدم الاسم في نحو

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٣٢.
(٢) التفسير الكبير ٨ / ١٥٥.
(٣) التفسير الكبير ٨ / ١٥٥.

هذا التركيب على الفعل كان الفعل صادرًا واستفهم عن فاعله وهو المشكوك فيه.

وإذا تقدم الفعل كان الفعل مشكوكًا فيه فاستفهم عنه أَوَقع أو لم يقع» [١].

وقالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ ولم يقولوا: (بالأصنام) أو (بأصنامنا) فسموها آلهة تعظيمًا لها، بل هي آلهتهم.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

القصد من هذا الإضراب أن يلزمهم الحجة لعلهم يعودون إلى عقولهم أو تعود إليهم فيعلمون أن آلهتهم لا تدفع ولا تنطق ولا تنصر نفسها.

جاء في (الكشاف): «هذا من معاريض الكلام... والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم» [٢].

«وإنما لم يقل عليه السلام: إن كانوا يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضًا لما أن نتيجة السؤال هو الجواب وأن عدم نطقهم أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل» [٣].

* * *

﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أي رجعوا إلى عقولهم فأدركوا أنه ينبغي أن تسأل الآلهة عن ذلك لا

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٤.
(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٢.
(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٣.

إبراهيم فإن إلقاء التهمة عليه ظلم.

جاء في (البحر المحيط): «﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي إلى عقولهم حين ظهر لهم ما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أن الأصنام التي أهلوها للعبادة ينبغي أن تسأل وتستفسر قبل.

ويحتمل أن يكون (فرجعوا) أي رجع بعضهم إلى بعض فقالوا: (إنكم أنتم الظالمون) في سؤالكم إبراهيم حين سألتموه ولم تسألوها... أو حين عبدتم ما لا ينطق» [١].

وقيل: «أي راجعوا عقولهم وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودًا» [٢].

ثم إنهم لما نسبوا الظلم إلى من فعل بآلهتهم فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عادوا فنسبوا الظلم إلى أنفسهم فقالوا: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وكما أكدوا قولهم بإن واللام فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أكدوه أيضًا عندما نسبوه إلى أنفسهم بإن والضمير المنفصل.

ثم إنهم لم يقولوا: (إنكم أنتم ظلمون) بل قالوا: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فعرفوا الظالمين بأل، أي إنكم أنتم الظالمون وليس غيركم، فعرفوه للدلالة على الحصر.

جاء في (التحرير والتنوير) في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: «الجملة مفيدة للحصر، أي أنتم ظالمون لا إبراهيم لأنكم ألصقتم به

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٣.

التهمة بأنه ظلم أصنامنا مع أن الظاهر أن نسألها عمن فعل بها ذلك ، ويظهر أن الفاعل هو كبيرهم» (١) .

* * *

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

أي بعد أن استقاموا ورجعوا إلى عقولهم انقلبوا فعادوا إلى باطلهم. شبه ذلك بمن انقلب على رأسه فقالوا: لقد علمت أن هؤلاء لا ينطقون فكيف تطلب منا أن نسألهم؟

جاء في (الكشاف): «(نكسته): قلبته فجعلت أسفله أعلاه ، وانتكس: انقلب. أي استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاؤا بالفكرة الصالحة ، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة» (٢) .

وجاء في (تفسير أبي السعود): «أي انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة. شبه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه . . .

والله لقد علمت أن ليس شأنهم النطق فكيف تأمرنا بسؤالهم؟» (٣) .

لقد جاء بالفاء في قوله: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ ﴾ للدلالة على سرعة ما حصل لهم ، فهو كالمفاجأة لهم.

ثم جاء بعد ذلك بـ (ثم) فقال: ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي بعد مهلة ، فهم كالذي يفوق من صدمة فعاد إلى حالته الأولى.

* * *

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٠٣ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٢ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٣ .

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

بكّتهم بعد انقطاع حجتهم فقال لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾

إنه لم يقل: (أفتعبدون هذه الأصنام بعدما تبيّن لكم أنها لا تنفع ولا تضر ولا تدفع عن نفسها) بل قال: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾.

فلم يخصص الإنكار بأصنامهم دون غيرها، بل ذكر حكمًا عامًّا في كل ما اتصف بهذا الوصف مما اتخذ إلهًا من دون الله.

وقوله: ﴿لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ يعني لا ينفعكم شيئًا من الأشياء ولا شيئًا من النفع، فكان النفي مطلقًا عن كل شيء.

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(أف) كلمة يراد بها التضجر، فتضجر منهم ومما يعبدون من دون الله.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أليس لكم عقل فتفكرون، كأن الذي يفعل ذلك ليس له عقل.

* * *

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قالوا: (حرّقوه) ولم يقولوا: (أحرقوه) من (أحرق) ولا (احرقوه) من (حرق). وإنما قالوه بالتضعيف للمبالغة في الحرق، يقال: «أحرقه بالنار وحرّقه شدد للكثرة»[١].

---

(١) لسان العرب (حرق).

وراموا تحريقه لأنه أشد العقوبات(١).

قد تقول: ولكنهم قالوا في العنكبوت: ﴿قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.

فذكروا التخيير بين أحد الأمرين: القتل أو التحريق. أما في آية الأنبياء هذه فإنهم قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ فذكروا أشد العقوبتين وهو التحريق ولم يذكروا القتل فما السبب؟

والجواب ظاهر، فإن السياق في الأنبياء أشد، ذلك أنه حطم أصنامهم وجعلهم جذاذًا، وأما في العنكبوت فلم يذكر ذلك وإنما ذكر ما هو أخف، فقد قال في العنكبوت: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

لقد قال لهم في الأنبياء ما هو أشد من ذلك، فقد رماهم ورمى آباءهم بالضلال المبين فقال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٤.

وقال: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

فرماهم بعدم العقل.

وتوعدهم بأن يكيد أصنامهم: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

فالفرق ظاهر بين المقامين.

أو إن ما في العنكبوت إنما كان في بداية المداولة والتشاور فيما يفعلون به فذكروا القتل أو التحريق ثم استقر الرأي على تحريقه. ووضع كلاًّ في سياقه المناسب.

لقد قالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ فطلبوا نصر آلهتهم، وهذه إشارة إلى أن الآلهة لا تستطيع أن تنصر نفسها بل هم ينصرونها، وهو مناسب لما مر قبل هذه الآيات وهو قوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

والكلام هنا على ما يعبده المشركون في زمن الرسول من الآلهة. فقد ذكر أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم. وهو حقيقة عامة في جميع ما اتخذ إلهًا من دون الله وما يتخذ، سواء كان في زمن إبراهيم أم قبله أم بعده.

وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ يعني «إن كنتم ناصرين أنفسكم نصرًا مؤزرًا» (١).

* * *

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٣.

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

لم يقل: يا نار كوني باردة وذات سلام، وإنما قال: ﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا ﴾ مبالغة في أن تكون هي البرد والسلام بعينهما.

وجمع بين البرد والسلام لتكون غاية في الراحة، ولئلا يناله شيء من الأذى. إذ لو قال: (كوني بردًا) ولم يقل: (كوني سلامًا) لربما آذاه البرد، خاصة وإنه أمر بالمبالغة في كونها باردة، فقد أمر بالمصدر.

جاء في (البحر المحيط): «لو لم يقل: (وسلامًا) لهلك إبراهيم من البرد... والمعنى ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كأن ذاتها برد وسلام»[(١)].

وقال: ﴿ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ لتكون بردًا وسلامًا عليه خاصة، وهي جحيم على غيره.

﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾

لما قال: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم ﴾ فأقسم ليكيدن أصنامهم أرادوا هم أيضًا أن يكيدوه ويمكروا به. فهو أراد أن يكيد أصنامهم وهم أرادوا أن يكيدوه. فكلٌّ أراد أن يكيد ولكن شتان ما بين الكيدين.

قد تقول: لقد قال هنا: ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا ﴾ بإدخال الواو على الفعل (أرادوا).

وقال في الصافات: ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ بإدخال الفاء على الفعل.

فما سبب الاختلاف؟

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٨.

والجواب ظاهر ، ذلك أن القول في سورة الأنبياء إنما ذكر بعد إلقائه في النار وجعلها بردًا وسلامًا ، فلا يناسب ذكر الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب ، فإن الكيد قد حصل وتم.

وأما في الصافات فإنه قال ذلك بعد قولهم: ﴿ فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴾ فذكر إرادة الكيد بعد الأمر بإلقائه في الجحيم وقبل التنفيذ ، فناسب ذكر الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب.

لقد قال في الأنبياء: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ فذكر الخسران.

وقال الصافات: ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ فذكر أنه جعلهم الأسفلين.

ذلك أنهم قالوا في الأنبياء: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ فطلبوا أن ينصروا آلهتهم فكان عاقبة ذلك أنهم خسروا الحرب التي أرادوا بها أن ينصروا آلهتهم.

ونتيجة الحرب النصر أو الخسارة فكانوا هم الأخسرين.

وقال: (الأخسرين) ولم يقل: (الخاسرين) للدلالة على أفظع الخسران وأشده ، فهم خسروا الدنيا والآخرة.

جاء في (البحر المحيط): «﴿ فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ أي المبالغين في الخسران وهو إبطال ما راموه جادلوا إبراهيم فجدلهم وبكتهم وأظهر لهم وقر عقولهم ، وتقووا عليه بالأخذ والإلقاء فخلصه الله» [1].

وجاء في (تفسير أبي السعود): «﴿ فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ أي أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق برهانًا قاطعًا على أنه

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٨.

عليه السلام على الحق وهم على الباطل» [١]!

وأما قوله في الصافات: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ فإن ذلك مناسب لذكر البنيان، والبنيان بناء عال مرتفع فإنهم أرادوا أن يلقوا إبراهيم منه ليهوي في النار فكانوا هم الأسفلين.

فناسب ذكر الأسفلين ذكر البنيان المرتفع.

جاء في (درة التنزيل) في قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾

وقوله في الصافات: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾:

«الجواب أن يقال ما في سورة الأنبياء فإن الله تعالى أخبر فيها عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ ثم أخبر عن الكفار لما ألقوه في النار وأرادوا به كيدًا ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ والكيد سعي في مضرة ليورد على غفلة. فذكر مكايدة بينهم وبين إبراهيم عليه السلام فكادهم ولم يكيدوه، فخسرت تجارتهم وعادت عليهم مكايدتهم لأنه كسر أصنامهم ولم يبلغوا من إحراقه مرادهم. فذكر الأخسرين لأنهم خسروا فيما عاملهم به وعاملوه من المكايدة التي أضيفت إليهما.

وأما التي في سورة الصافات فإن الله تعالى أخبر عن الكفار فيها بما اقتضى من الأسفلين وهو إنه قال: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ فبنوا له بناء عاليًا ورفعوه فوقه ليرموا به من هناك إلى النار التي أججوها، فلما علوا ذلك البناء وحطوه منه إلى أسفل عادوا هم الأسفلين، لأنهم أهلكوا في الدنيا وسفل أمرهم في الأخرى.

والله تعالى نجى نبيه وأعلاه عليهم فانقلب عالي أمرهم في صعود

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٥.

البناء وسافل أمر إبراهيم عليه السلام لما حط إلى النار أن صار ذاك سافلاً وأمر النبي عليه السلام عاليًا، فلذلك اختصت هذه الآية بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾» [١].

وجاء في (كشف المعاني في المتشابه من المثاني) لبدر الدين بن جماعة: «أنهم أرادوا كيده بإحراقه فنجاه الله تعالى وأهلكهم وكسر أصنامهم فخسروا الدنيا والآخرة.

وفي الصافات قالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ﴾ أي من فوق البناء في الجحيم، فناسب ذكر الأسفلين لقصدهم العلو لإلقائه في النار والله أعلم» [٢].

وجاء في (ملاك التأويل): «قيل روعي في آية الصافات مقابلة قولهم: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ لأنه يفهم منه إرادتهم علو أمرهم بفعلهم ذلك فقوبلوا بالضد فجعلوا الأسفلين» [٣].

وقال: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ و﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ ولم يقل: (فكانوا هم الأخسرين) أو (فكانوا هم الأسفلين) لأن ذلك إنما كان بقدرة الله سبحانه وجعله ونصره.

وقد تقول: لكنه قال في آية أخرى: ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الصافات: ١١٦] فقال: (فكانوا).

فنقول: إن السياق يوضح ذلك، فقد قال سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾.

---

(١) درة التنزيل ٣٠٠.
(٢) كشف المعاني ٢٥٦.
(٣) ملاك التأويل ٢ / ٧٠١.

فذكر أنه نصرهم فكانوا هم الغالبين، أي بنصره سبحانه كانوا هم الغالبين. هذا علاوة على أنه ذكر أيضًا أنه نجاهما وقومهما من الكرب العظيم.

فهو الذي نجاهم وهوالذي نصرهم فغلبوا بنصره سبحانه.

* * *

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

«نجيا من العراق إلى الشام. وبركاته الواصلة إلى العالمين أن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية...

وقيل: بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب» (١).

و«هذه نجاة ثانية بعد نجاته من ضر النار» (٢).

وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكرت فيه نجاته ولوطاً إلى هذه الأرض الموصوفة بهذه الصفة.

* * *

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

* * *

النافلة: الزيادة، أي وهب له يعقوب زيادة من غير أن يسأله إياه، فقد وهب ربنا لإبراهيم ولده إسحاق استجابة لدعائه، وأما يعقوب وهو ولد الولد فقد بشره من غير أن يسأله.

جاء في (الكشاف): «النافلة: ولد الولد. وقيل: سأل إسحاق

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ١٠٨.

فأعطيه ، وأعطى يعقوب نافلة ، أي زيادة وفضلاً من غير سؤال» (١) .

وجاء في (البحر المحيط) : «إذ كان إسحاق ثمرة دعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وكان يعقوب زيادة من غير دعاء» (٢) .

وفيما قاله صاحب البحر نظر ، فإن ثمرة هذا الدعاء المذكور هو إسماعيل وليس إسحاق عليهما السلام كما جاء في سورة الصافات .

قال تعالى : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ . . .﴾ .

وهذا هو إسماعيل .

ثم قال بعد ذلك : ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ .

إلا أن يقال : إن دعاء سيدنا إبراهيم ليس مختصًّا بمعين وإنما طلب ذرية صالحة واحدًا أو أكثر ، فيكون كل من إسماعيل وإسحاق من ثمرة هذا الدعاء المبارك .

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾

أي المذكورين وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب(٣) .

* * *

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

كرر الفعل (جعل) مع مفعوله الأول فقال : ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ ولم

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٣ .
(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٢٩ .
(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٢٩ .

يعطف (أئمة) على (كلاًّ) فيقول: (وأئمة يهدون بأمرنا) لئلا يحتمل معنى آخر وهو: (وجعلنا أئمة يهدون بأمرنا) أي أئمة آخرين غير هؤلاء فيعني بالأئمة غيرهم فيكون المعنى: إن هؤلاء كانوا صالحين، وجعلنا أئمة يهدون بأمر الله أي آخرين. فقال: (وجعلناهم) يعني المذكورين في الآية السابقة وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب.

وقد يحتمل العطف على (صالحين) أي جعلناهم صالحين وأئمة فيكون التعبير احتماليًا. فأراد النص على أن المقصودين هم المذكورون فكرر الفعل مع مفعوله الأول.

جاء في (التحرير والتنوير): «وإعادة فعل (جعل) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ دون أن يقال: (وأئمة يهدون) بعطف (أئمة) على (صالحين) اهتمامًا بهذا الجعل الشريف، وهو جعلهم هادين للناس بعد أن جعلهم صالحين في أنفسهم...

ولأن في إعادة الفعل إعادة ذكر المفعول الأول فكانت إعادته وسيلة إلى إعادة ذكر المفعول الأول. وفي تلك الإعادة من الاعتناء ما في الإظهار في مقام الإضمار» (١).

وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يحتمل معنيين:

الأول: أن يكونوا مأمورين بالهداية، أي أمرهم ربهم بأن يهدوا الناس.

جاء في (الكشاف): «﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها» (٢).

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٠٩.
(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٣.

والمعنى الآخر: أي يهدون بشرع الله فيكون أمره ـ وهو ما شرعه سبحانه للناس ـ وسيلة للهداية نحو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

أي يهدي بالقرآن.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣].

فيكون وسيلة للهداية.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

«أي خصصناهم بشرف النبوة» (١).

﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ «من عطف الخاص على العام دلالة على فضله» (٢).

فإن فعل الخيرات عام يشمل الفروض والمندوبات.

فدخل في ذلك ما ذكر من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وخصهما بالذكر لأهميتهما وكبير منزلتهما عند الله، فإنهما من أركان الإسلام كما هو معلوم.

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾

قدم الجار والمجرور (لنا) على (عابدين) للاختصاص، أي كانوا

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٦.

عابدين لنا خاصة دون غيرنا(١).

* * *

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

انتصب (لوطًا) على الاشتغال، أي آتينا لوطًا حكمًا وعلمًا.

وقيل: يحتمل أن يكون منصوبًا بـ (اذكر) مقدّرًا(٢).

والحكم معناه العلم والفقه، وقد يأتي بمعنى القضاء، ومنه الحكم بين المتخاصمين(٣).

جاء في (الكشاف): «(حكمًا) حكمة وهو ما يجب فعله، أو فصلاً بين الخصوم، وقيل: هو النبوة»(٤).

وهو هنا ليس بمعنى القضاء والفصل، وإنما معناه الفقه والحكمة.

وقد استعمل القرآن في الحكم الإيتاء أو الهبة وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [يوسف: ٢٢]، وقوله: ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ [الشعراء: ٢١].

ولم يأت الحكم مسندًا إلى الله إلا بلفظ الإيتاء أي نحو (آتيناه حكمًا وعلمًا)، فالحكم مما يؤتيه الله سبحانه، ولم يرد نحو (وهبنا له حكمًا) ولا (وهب الله له حكمًا). وقد ذكرنا الفرق بين الإيتاء والهبة في شرحنا

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٦.

(٢) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٢٩، تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٦.

(٣) انظر (من أسرار البيان القرآني) ٩.

(٤) الكشاف ٢ / ٣٣٣.

لسورة (يس) في تعرضنا لقصة أيوب مما استدعاه السياق فلا نعيد القول فيه[١].

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾

استعمل ههنا لفظ (نجيناه) ولم يستعمل (أنجيناه).

ومن الملاحظ في استعمال هاتين اللفظتين في هذه القصة أنه يقول أحيانًا: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٨٣، النمل: ٥٧].

ويقول أحيانًا: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ [الشعراء: ١٧٠] ﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ [الصافات: ١٣٤].

وقد بينا في كتابنا: (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) أن (نَجَّى) يستعمل في القرآن الكريم للتلبث والتمهل في التنجية، وأن (أنجى) يستعمل للإسراع فيها، فإن (أنجى) أسرع من (نَجَّى) في التخلص من الشدة والكرب[٢].

ومن الملاحظ في استعمال هذين الفعلين في هذه القصة أن ما يستدعي الإسراع في التنجية يستعمل معه الفعل (أنجينا).

وما كان دون ذلك يستعمل (نجينا).

وإيضاح ذلك أنه استعمل (أنجيناه) في هذه القصة في موضعين وهما قوله تعالى في الأعراف: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

---

(١) على طريق التفسير البياني ٢ / ١٥٣.

(٢) انظر بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٧٤ وما بعدها.

وقوله في (النمل): ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

واستعمل (نجيناه) علاوة على ما ورد في سورة الأنبياء في موضعين هما قوله تعالى في الشعراء: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾.

وقوله في الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

ومن الواضح أن ما في الأعراف والنمل أدعى إلى الإسراع في النجاة وعدم التلبث مما في الشعراء والصافات.

ذلك أنه قال في الأعراف على لسان قومه: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقال في النمل: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

فأمروا بإخراجهم من القرية.

وليس في الشعراء نحو ذلك، وإنما هددوه بالإخراج إن لم ينته ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾.

فمرحلة ما في الأعراف والنمل بعد ما في الشعراء.

ففي الشعراء هددوه بالإخراج إن لم ينته.

وأما في الأعراف والنمل فقد أمروا بإخراجه، ومعنى ذلك أنه لم ينته.

فاستدعى الإسراع في النجاة في الأعراف والنمل.

وأما في الصافات فليس فيه نحو ذلك، وليس فيه تهديد له من قومه.

فناسب الإسراع في النجاة في الأعراف والنمل.

وليس في آية الأنبياء شيء من ذلك فلم يستدع الإسراع.

وهناك ملاحظة أخرى في هذه القصة:

وهي أنه ذكر في هذا الموضع من سورة الأنبياء نجاته وحده ولم يذكر نجاة أحد معه، وذلك أن الكلام عليه وتفضل الله عليه وليس على رسالته وموقفه مع قومه.

وفي مواضع أخرى يذكر نجاته وأهله إلا امرأته وذلك كما في الأعراف والنمل والشعراء والصافات وذلك في مقام الرسالة والدعوة.

وقد تقول: ولكنه قال في الصافات: ﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ وليس ذلك في مقام الدعوة، فقد قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ ولم يذكر دعوته لقومه.

فنقول: إنه قال إن لوطًا لمن المرسلين، والرسالة تقتضي التبليغ والدعوة. فناسب ذكر نجاته وأهله وتدمير الآخرين. وليس في سياق آية الأنبياء نحو ذلك.

وقد يذكر نجاة آله ولم يذكر نجاته معهم وذلك ما ورد في سورة القمر، فقد قال سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ونجاته مفهومة من السياق، فإنه هو الذي أنذرهم البطشة، ثم ذكر أن العذاب إنما أصاب قوم لوط فدل على نجاته هو. ثم إن قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ يدل على نجاة من شكر دون من لم يشكر.

وهذا هو السياق فيما ورد عن الرسل في سورة القمر ، فإنه لم يذكر نجاة الرسل ولا من آمن معهم.

فقد ذكر عادًا وإهلاكهم ولم يذكر نجاة المؤمنين ولا رسوله. ونحو ذلك ورد في ثمود ، وكذلك ما ورد في آل فرعون.

فهي كلها تجري على نسق واحد.

قد تقول: ولكن الأمر ليس كذلك في قصة نوح فقد ذكر نجاته ، فقد قال فيه: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

فلم ذاك؟

فنقول إن السياق اقتضى ذلك من أكثر من جهة.

١ ـ فقد قال في قصة نوح: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾.

فذكر أنهم كذبوا عبده ، أي كذبوا نوحًا ، ولم يذكر مثل ذلك في القصص الأخرى.

وإنما قال في قصة عاد: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾ ولم يذكر تكذيبهم لرسوله.

وقال في قصة ثمود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ ولم يذكر التكذيب لرسولهم.

وقل في قوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ وهو نحو ما ورد في ثمود.

وقال في فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ فذكر التكذيب بالآيات.

٢ ـ ثم ذكر في قصة نوح أنهم زجروا نوحًا فقد قال: ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾.

وقوله: (ازدجر) يعني المبالغة في الزجر.

فناسب ذكر نجاته.

٣ ـ ثم ذكر أنه دعا ربه فقال إنه مغلوب وطلب من ربه أن ينصره فقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾

فناسب ذلك إجابة دعائه وأن ينصره فقال: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾

ولم يرد نحو ذلك في القصص الأخرى.

فناسب كل تعبير موضعه.

وهذا من لطيف مراعاة المقام.

قد تقول: ولكنه ذكر نجاة آل لوط وحدهم في القمر ولم يذكر نجاة أهل الآخرين المذكورين في السورة.

فنقول: لقد ذكر قصة نوح في السورة ونجاته.

وأما عاد وثمود فلم يرد لأهلهما ذكر في جميع ما ورد في القرآن الكريم فلم يذكرهما في سورة القمر.

وقد ذكر آل فرعون في القمر كما ذكر آل لوط، غير أنه ذكر نجاة آل لوط وعقوبة آل فرعون.

ومن الملاحظ في قصة لوط أنه أحيانًا يذكر أنه نجاه وأهله إلا امرأته كما في سورتي الأعراف ٨٣ والنمل ٥٧ فيذكر امرأته.

وأحيانًا يقول: (إلا عجوزًا) فيذكر العجوز ولم يذكر أنها امرأته (انظر الشعراء ١٧١، الصافات ١٣٥).

فإنه حيث يقول: (أنجيناه) يستثني امرأته ، وحيث يقول (نجيناه) يستثني العجوز.

وقد ذكرنا أنه حيث استدعى الإسراع في النجاة يقول: (أنجينا) وما كان دون ذلك يقول: (نجينا).

ومن المعلوم أن المرأة إنما تكون في بيت زوجها فأصبح الخطر أشد ؛ لأن الخطر إنما جاء من الخارج ومن الداخل ، فهي عين لقومها عليه ، فكأنها من المخابرات تخبر قومها عما في بيت زوجها ، وهذه إشارة إلى أنه إذا لم يأمن الرجل أهل بيته كان الخطر عليه أعظم.

فاستدعى ذلك الإسراع في النجاة إضافة إلى ما ذكرنا.

وأما قوله: (إلا عجوزًا) فهو لم يذكر أنها امرأته ، ثم ذكر أنها عجوز ، ولا شك أن العجوز أقل حركة من الشابة.

فلم يدل بقوله: (عجوز) أنها امرأته ، إضافة إلى أنها عجوز. كما أن المقام لايستدعي الإسراع في النجاة فكان الخطر أقل.

فناسب كل تعبير موضعه من جهة أخرى.

وهذا من عجيب مراعاة المقام.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴾

السَّوء بفتح السين هو المصدر ، والسُّوء بالضم الاسم[1].

فالسوء بالضم حالة من حالات السَّوء بالفتح ، فقد يكون مرضًا أو غير ذلك مما يصيب الإنسان من مكروه في ماله أو بدنه.

قال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [النمل: ١٢].

---

(١) لسان العرب (سوء).

أي من غير برص[١].

وقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ (٣٠)﴾

فالسَّوء أعم من السُّوء.

وقد أضاف القوم إلى السَّوء للمبالغة في ذمهم.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾

أضاف الرحمة إليه سبحانه للدلالة على عظيم ما أدخله فيه من الرحمة.

فإنه يذكر أحيانًا أنه يُدخل في رحمته.

وقد يذكر أنه يُدخل في رحمة منه.

ولا شك أن قوله: (في رحمته) أعلى من (في رحمة منه) وأدل على سعة الرحمة. فإن قوله: (في رحمة منه) نكرة وهي جزء من رحمته سبحانه.

وكل ذلك بحسب السياق.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٣٠].

فقال: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾

وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

---

(١) لسان العرب (سوء).

فقال: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾

ذلك أن ما ذكره في آية الجاثية أعلى. فقد ذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

فذكر الإيمان على العموم، وهو أعم من الإيمان بالله.

وذكر عمل الصالحات ولم يذكر ذلك في آية النساء.

فناسب أن يقول: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾.

ثم من ناحية أخرى أنه قال في آية الجاثية: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على العموم فناسب أن يقول: (في رحمته)، فإن قوله: (في رحمته) أعم من قوله: (في رحمة منه) فناسب العموم العموم.

ثم قال: (وعملوا الصالحات) فذكر الصالحات بالجمع فناسب ذلك أيضًا أن يقول: (في رحمته).

وقال في التوبة: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

فذكر الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق قربة لله وصلوات الرسول أي دعاءه.

ولا شك أن هذه أعلى مما ذكره في آية النساء، فناسب أن يقول: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾.

هذا إضافة إلى أنه ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

وقد تقول: ولم قال في آية النساء: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾

وقال في آية التوبة: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ بالسين في الآيتين.

وقال في آية الجاثية: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ من دون سين؟

فنقول: إن آيتي النساء والتوبة إنما هما فيمن هو في الدنيا فناسب ذكر السين التي هي للاستقبال.

وأما آية الجاثية فإنما هي فيمن هو في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ ﴿٣٠﴾﴾.

فلا يناسب ذكر السين، فإنما الأمر حاضر في ذلك الوقت.

﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

جعل الصلاح سببًا للدخول في رحمته سبحانه.

هذا إضافة إلى أن ذلك مناسب لما تقدم من قوله: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾

يعني إبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعقوب.

فقد ذكر أنه جعله من المذكورين بالصلاح.

فذكره بالصلاح مرتين.

* * *

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

انتصب (نوحًا) على إضمار (اذكر) [1]، وقيل: هو معطوف على

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٣٠.

(لوطًا) «فيكون ذلك مشتركًا في العامل الذي هو آتينا» أي آتينا نوحًا حكمًا وعلمًا(١).

و(من قبل) أي من قبل هؤلاء المذكورين(٢).

و(نصرناه) من القوم، أي نجيناه منهم.

وقوله: (فاستجبنا) بالفاء يدل على تعقيب الاستجابة بعد النداء.

ومن الملاحظ في هذه الآية أنه ذكر الفعل (نادى) ولم يذكر مفعوله، فلم يذكر من نادى ولا بماذا دعا.

ولكن علم من قوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أنه نادى ربه.

وعلمنا من الاستجابة فحوى الدعاء وهونجاته وأهله ونصره وإهلاك قومه الكافرين.

فقد قال في موضع آخر: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨] فدعا بالنجاة.

وقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦].

وقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر: ١٠].

فدعا بالنصر.

وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

فدعا على قومه بالهلاك.

وأمره ربه أن يحمل معه في الفلك فيما يحمل أهله إلا من سبق عليه القول منهم: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا

---

(١) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٣٠.

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٣.

وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]

فدل ذلك على نجاة أهله.

فكانت الاستجابة لكل ذلك.

فقال: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ وهو إجابة الدعاء بالنجاة.

وقال: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ فكانت الاستجابة بالنصر.

وقل: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فكانت الاستجابة بإهلاك الكفرة.

جاء في (تفسير الرازي): «لا شبهة في أن المراد من هذا النداء دعاؤه على قومه بالعذاب، ويؤيده حكاية الله تعالى عنه ذلك تارة على الإجمال وهو قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، وتارة على التفصيل وهو قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

ويدل عليه أيضًا أن الله تعالى أجابه بقوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهذا الجواب يدل على أن الإنجاء المذكور فيه كان هو المطلوب في السؤال. فدل هذا على أن نداءه ودعاءه كاف بأن ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الأذى بالتكذيب والرد عليه، وبأن ينصره عليهم وأن يهلكهم فلذلك قال بعده: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾» (١).

لقد قال في هذه الآية: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ ولم يذكر أنه نادى ربه كما أسلفنا.

وقال في الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾

---

(١) تفسير الرازي ـ المجلد ٨ / ١٦٢.

فقال: (نادانا) بذكر المفعول به وهو ضمير العظمة.

ومن المناسب أن نذكر أنه لما قال: (نادانا) فأظهر ذاته سبحانه زاد في تفضله عليه بالإجابة. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

فقال: ﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ فأثنى على ذاته سبحانه.

ثم تفضل على نوح بما لم يذكره في سورة الأنبياء، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾

وقال: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وقال: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

وقال: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن ضمير العظمة ورد في آيات الصافات أكثر مما ورد في هذه القصة في سورة الأنبياء.

فإنه ورد في الأنبياء خمس مرات، وذلك في قوله: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ ﴿ فَنَجَّيْنَـٰهُ ﴾ ﴿ وَنَصَرْنَـٰهُ ﴾ ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ ﴿ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ ﴾.

وورد في آيات الصافات ثماني مرات. وذلك في قوله: ﴿ نَادَىٰنَا ﴾ ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ ﴿ وَتَرَكْنَا ﴾ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ ﴿ نَجْزِى ﴾ ﴿ عِبَادِنَا ﴾ ﴿ أَغْرَقْنَا ﴾.

فناسب ذلك افتتاح الآيات في الصافات بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا ﴾.

* * *

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

«أي واذكرهما. و(إذ) بدل منهما.

والنفش: الانتشار بالليل. وجمع الضمير لأنه أرادهما والمتحاكمين إليهما. . .

والضمير في (ففهمناها) للحكومة أو للفتوى. . .

حكم داود بالغنم لصاحب الحرث، فقال سليمان. . . : غير هذا أرفق بالفريقين. فعزم عليه ليحكمنّ.

فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها، والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعود كهيئته يوم أفسد، ثم يترادّان.

فقال: القضاء ما قضيت، وأمضى الحكم بذلك. . .

وفي قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ دليل على أن الأصوب كان مع سليمان عليه السلام» [(١)].

وقوله: ﴿إِذۡ يَحۡكُمَانِ﴾ بصيغة المضارع «حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها، أي اذكر خبرهما وقت حكمهما» [(٢)].

و﴿شَٰهِدِينَ﴾ أي حاضرين علمًا[(٣)].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٣ ـ ٣٣٤.
(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٧.
(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٧.

وقال ههنا: ﴿شَٰهِدِينَ﴾ بجمع المذكر السالم ، وقال في آية أخرى: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ فقال: ﴿شُهُودًا﴾ بجمع التكسير ؛ ذلك لأن ما في آية يونس يدل على الكثرة ، وآية الأنبياء للقلة.

فإنه في آية الأنبياء ذكر داود وسليمان والمتخاصمين.

وأما آية يونس فإنها تعم جميع الناس إلى قيام الساعة. قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾

قال ههنا إنه آتاهما حكمًا وعلمًا فذكر الحكم والعلم ،وذكر في موضع آخر أنه آتاهما علمًا ولم يذكر الحكم ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

فذكر العلم ولم يذكر الحكم.

ذلك أنه في الأنبياء ذكر الحكم وهو القضاء بين المتخاصمين ، والقضاء يحتاج إلى العلم فذكر الحكم والعلم.

وأما في النمل فليس السياق في القضاء وإنما فيما آتاهما الله من العلم.

فقد ذكر أن الله علم سليمان منطق الطير: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ ، وفهم قول النملة ، وتكلم مع الهدهد وذكر الذي عنده علم من الكتاب.

فناسب ذكر العلم ولم يذكر معه الحكم.

وقد تقول: لقد قال في آية أخرى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ [سبأ: ١٠] فذكر الفضل وحده ولم يذكر الحكم ولا العلم ، فلم ذاك؟

فنقول إن كل تعبير مناسب لسياقه ، وقد ذكرنا ما ورد في الأنبياء والنمل.

وأما في آية سبأ فليس السياق في الحكم ولا في العلم ، وإنما فيما تفضل الله على سيدنا داود في غير ذلك ، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ ، وهذا مما سخره الله له كما أخبر عن ذلك سبحانه فقال: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٨ ـ ١٩].

وكما قال في الآية الآتية من سورة الأنبياء ، وليس ذلك من الحكم ولا من العلم الذي أوتيه وإنما هو فضل آتاه الله إياه كما قال سبحانه.

* * *

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قدم الجبال على الطير لأن تسبيحها أعجب.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لم قدمت الجبال على الطير؟

قلت: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل عل القدرة وأدخل في الإعجاز لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق» (١).

وقال: (يسبحن) ولم يقل: (مسبحات) «مع أن الأصل في الحال الإفراد للدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال» (٢).

ومن الملاحظ أنه قال هنا: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٤.

(٢) روح المعاني ٢٣ / ١٧٤.

فقدم الظرف (مع) على الجبال.

وقال في سورة (ص): ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾

فقدم الجبال على الظرف.

وقد قيل إن ذلك لذكر داود وسليمان في الأنبياء فقدم مسارعة للتعيين وليس كذلك في آية (ص) [١].

ولعل من أسباب ذلك أن ما ذكره عن الجبال في (ص) أكثر مما ذكره في الأنبياء. فقد قال في الأنبياء: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾.

وأما في (ص) فقد قال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾

فناسب ذلك تقديمها في (ص).

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾

«أي قادرين على أن نفعل هذا وإن كان عجبًا عندكم» [٢] وإن «من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وإن كان بديعًا عندكم» [٣].

* * *

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

المراد باللبوس الدرع [٤] وهي تلبس في الحرب لتقيهم بأسها.

فربنا سبحانه علمه صنعتها.

---

(١) روح المعاني ٢٣ / ١٧٤.
(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٤.
(٣) روح المعاني ١٧ / ٧٦.
(٤) الكشاف ٢ / ٣٣٤.

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾

استفهام يراد به الطلب ، أي فاشكروا الله على ذلك .

وخاطب عموم الناس بذلك لأن فائدتها لعموم الناس إلى قيام الساعة ، فإن البأس لا ينقطع .

ألا ترى أنه لما لم يذكر في موضع آخر أنها للناس لم يطلب منهم شكره سبحانه؟

قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

وأما قوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ﴾ فقد قيل فيه: إن الخطاب لداود وأهله[١] كما في قوله : ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ﴾ [سبأ: ١٣] [٢] .

والمراد بالسابغات: الدروع .

ويحتمل أن يكون الأمر بالعمل الصالح لعموم الناس وإن كان السياق في آل داود أظهر والله أعلم .

وحتى لو كان الأمر بالعمل الصالح لعموم الناس فإن كل تعبير يناسب سياقه الذي ورد فيه .

فإنه في آية الأنبياء لما جعل صنعة اللبوس للناس لتحصنهم من بأسهم ناسب ذلك الأمر بشكره سبحانه ، فهو من الشكر على النعمة .

وأما آية سبأ فأنها في طلب العمل الصالح ، وهو مطلوب من كل فرد

---

(١) الكشاف ٢ / ٥٥٦ ، روح المعاني ٢٢ / ١١٦ .

(٢) فتح القدير ٤ / ٣٠٦ .

بلا استثناء سواء كان في سياق النعم أم لم يكن.

فناسب كل تعبير سياقه.

ومن لطيف المناسبة أنه لما ذكر اللبوس لهم طلب الشكر.

ولما ذكر السابغات، والسابغ هو الكامل الوافي المتسع[1]، أمر بالعمل الصالح؛ ذلك أنه ليس كل لبوس سابغًا، وأن الشكر إنما هو من العمل الصالح كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴿١٣﴾﴾، فإن (شكرًا) يصح إعرابه مفعولاً به لـ (اعملوا) أي اعملوا الشكر. وفيه أوجه أخرى غير المفعول به[2].

فالسابغ هو الوافي المتسع كما ذكرنا، فناسب ذلك العمل الذي هو أعم من الشكر.

فناسب كل تعبير موضعه من جهة أخرى.

* * *

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

ورد هذا الجانب من قصة سليمان في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم: في الأنبياء وسبأ و(ص). غير أنها لم تكن متطابقة بل قد يذكر في موضع ما لا يذكره في الموضع الآخر.

فقد قال في سبأ:

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ

---

(١) انظر لسان العرب (سبغ).

(٢) انظر روح المعاني ٢٢ / ١٢٠.

مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

وقال في (ص):

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾

* * *

ومن النظر في هذه النصوص يتضح أنها غير متطابقة ، فقد يفصّل في جانب ويجمل في جانب ، ويذكر أمرًا في موضع ولا يذكره في موضع آخر ، وغير ذلك من الأمور. وهو شأن القصص القرآني فإنه لا يعيد القصة نفسها من دون تغيير في تعبير أو زيادة أو إجمال ونحو ذلك.

وقد بينا في تفسيرنا لسورة هود طرفًا من ذلك.

ومن بين هذه الأمور:

١ ـ أنه ذكر الريح عاصفة في الأنبياء ، وذكرها رخاء في ص ، وذكرها مطلقة في سبأ.

٢ ـ ذكر غاية جريان الريح في الأنبياء وهي الأرض التي بارك فيها ، وذكر في سبأ مدة غدوها ومدة رواحها ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

وأطلق ذلك في (ص) فلم يذكر شيئًا من ذلك ، وإنما قال: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي حيث أراد وقصد.

٣ ـ لم يذكر زيغ الشياطين في الأنبياء وإنما قال: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ﴾.

وقال في سبأ إنه من يزغ عن أمره يذقه من عذاب السعير، ومعنى ذلك أنهم مطلقون غير مقيدين.

وذكر في (ص) أن منهم مقرنين في الأصفاد، وكأن ذلك لمن زاغ منهم أو حاول أن يزيغ.

٤ ـ ذكر في الأنبياء أن من الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك، ولم يذكر ما العمل.

وفي سبأ ذكر جملة مما يعملونه فقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾.

ولم يذكر في (ص) لهم عملاً، وإنما ذكر وصفهم فقال: ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾.

٥ ـ ذكر الشياطين في الأنبياء وص، وذكر الجن في سبأ.

٦ ـ ذكر في سبأ موت سليمان وعدم علم الجن بموته حتى خر بعدما أكلت دابة الأرض وهي الأرضة عصاه.

إلى غير ذلك من الأمور.

ونعود إلى بيان شيء من الأمور البيانية في آيتي الأنبياء.

﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾

أي وسخرنا لسليمان الريح بالعطف على الجبال في قوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ﴾، وكما في قوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ [ص: ٣٦].

وعدّى التسخير مع الريح باللام فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ وعدّاه مع

الجبال بـ (مع) فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴿٧٩﴾﴾ وذلك للفرق بين التسخيرين. فإن تسخير الريح غير تسخير الجبال. فإن الريح تجري بأمره كما يريد من العصف والرخاء وإلى حيث يريد، بخلاف تسخير الجبال فإنها مسخرة في التسبيح مع داود عليه السلام وليس كتسخير الرياح لسيدنا سليمان.

جاء في (تفسير أبي السعود) في قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ﴾: «أي وسخرنا له الريح. وإيراد اللام ههنا دون الأول للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت. فإن تسخير ما سخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلي له والامتثال بأمره ونهيه والمقهورية به تحت ملكوته.

وأما تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعية له عليه السلام والاقتداء به في عبادة الله عز وعلا» (١).

وقال هنا إنه سخر له الريح عاصفة، وذكر في (ص) أنه سخرها له رخاء، فذكر مرة أنها عاصفة، وذكر مرة أخرى أنها رخاء، وذلك بحسب ما يريد. جاء في (البحر المحيط): «ووصفت هذه الريح بالعصف وبالرخاء، والعصف الشدة في السير، والرخاء اللين.

فقيل: كان ذلك بالنسبة إلى الوقت الذي يريد فيه سليمان أحد الوصفين...

والأرض أرض الشام... وقيل: أرض فلسطين» (٢).

ومن الملاحظ أنه قال هنا: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٩ ـ ٧٢٠ وانظر روح المعاني ١٧ / ٧٧.
(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٣٢.

وقال في الآية الحادية والسبعين من هذه السورة: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾

فذكر أنها للعالمين. ولم يقل ذلك في هذه الآية ، ذلك أن الآية السابقة إنما هي في ذكر الرسالات فقد ذكر إبراهيم ولوطاً وذكر إسحاق ويعقوب ثم قال: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ .

فذكر أنه جعلهم أئمة يهدون بأمر الله وأنه أوحى إليه فعل الخيرات .

والهداية إنما هي للعالمين فناسب أن يقول: ﴿ بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ وذلك لأن إرسال الرسالات والهداية إنما هي لهم .

وليس في الآية الأخرى مثل ذلك ، وإنما هي الريح تجري بأمر سليمان كما يريد .

فناسب كل تعبير موضعه .

ومن لطيف التناسب أنه ذكر في الأنبياء أن الريح عاصفة ، وذكر في (ص) أنها رخاء .

وكل وصف وضع في مكانه من حيث السياق .

فقد ذكر في الأنبياء أنها عاصفة مناسبة لما قبلها وهو قوله: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ ، والبأس هي الحرب ، والحرب عاصفة .

وقوله: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ يعني نوحًا عليه السلام ، وقد كان بين نوح وقومه عصف وشدة مدة طويلة .

وذكر المخاصمة بين أصحاب الحرث والغنم وهي خصومة وشدة .

فناسب ذكر العصف .

وأما في (ص) فذكر أنه عرض على سليمان بالعشي الصافنات الجياد ، فقد قال: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١﴾

والصافن من الخيل: الذي يرفع إحدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافرها ، فهو يقف على ثلاث قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر(١) .

فالخيل هنا واقفة .

وقال: ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ [ص: ٣٣] وأيًّا ما كان معنى المسح فإنها تعني أنها في حالة سكون ووقوف .

وقال: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤﴾ والجسد لا يتحرك .

فناسب ذكر الرخاء .

وهو تناسب لطيف في اختيار اللفظة مع السياق الذي وردت فيه .

﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴾

أي «أحاط علمنا بكل شيء فنجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا» (٢) .

* * *

﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ۝٨٢﴾

جمع الفعل (يغوصون) حملاً على معنى (من) في هذه الآية .

---

(١) انظر لسان العرب (صفن) ، روح المعاني ٢٣ / ١٩٠ .
(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

وقال في (سبأ): ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿١٢﴾﴾ بإفراد الفعل (يعمل).

ذلك ـ والله أعلم ـ أنه ذكر في الأنبياء أنهم يغوصون ويعملون عملاً دون ذلك ، فذكر الغوص والعمل.

وذكر في سبأ العمل ولم يذكر الغوص ، وقد ذكر أنواعًا من العمل.

والغوص والعمل أكثر من العمل وحده ، فناسب الجمع في آية الأنبياء ، والذي يبدو ـ والله أعلم ـ أنهم صنفان: غواص وعامل كما قال سبحانه: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾

جاء في (فتح القدير): «﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي كل بنّاء منهم وغواص منهم يبنون له ما يشاء من المباني ، ويغوصون في البحر فيستخرجون له الدرر منه»[1].

وإذا كان الأمر كذلك فقد ناسب الجمع في الأنبياء من جهة أخرى ذلك لأنهم أكثر فمنهم غواصون ومنهم عاملون.

وأما في سبأ فقد ذكر الذين يعملون ولم يذكر الذين يغوصون.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في سبأ أن من الجن من يعمل بين يديه ، فذكر مكان العمل ، وأطلقه في الأنبياء فقد يكون منهم من يعمل بين يديه ، ومنهم من يعمل في أمكنة أخرى يحددها لهم. فهم أكثر.

فناسب جمع الفعل في الأنبياء وإفراده في سبأ من ناحية أخرى.

وقد تقول: ولم ذكر الشياطين في الأنبياء ، وذكر الجن في سبأ؟

---

(١) فتح القدير ٤ / ٤٥.

فنقول: لقد قال في سبأ: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

فذكر الجن وعدم علمهم بالغيب، والجن أعم من الشياطين وأكثر.

فإن الجن يعم الكافر والمؤمن منهم، وأما الشياطين فهم كفرة الجن، فناسب نفي علم الغيب عمن هم أكثر وأعم.

وقال في سبأ أيضًا: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

فذكر الجن على العموم من دون تخصيص الشياطين بالعبادة.

فناسب ذكر الجن في سبأ. وليس في الأنبياء نحو ذلك.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾

أي حافظين من أن يزيغوا عن أمره أو يبدلوا أو يغيروا أو يوجد منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه[١].

وقيل: (حافظين) حتى لا يهربوا[٢] أو ما نعينهم من الناس[٣].

وكل ذلك مراد.

* * *

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٤.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٣٣.

(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ١٢٥.

﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

لقد ذكر أيوب بعد ذكر سليمان في هذه السورة وفي سورة (ص) فذكر الغني الشاكر وهو سيدنا سليمان ، وأتبعه بذكر المبتلى الصابر وهو سيدنا أيوب . فجمع بين الحالتين في الابتلاء :

الابتلاء بما يقتضي الشكر ، والابتلاء بما يقتضي الصبر .

فإن من الابتلاء ما يقتضي الشكر كما قال تعالى على لسان سيدنا سليمان : ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ ﴾ [النمل : ٤٠] .

ومنه ما يقتضي الصبر كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾

أي واذكر أيوب إذ نادى ربه .

وقد صرح بالفعل (اذكر) في هذه القصة في سورة (ص) فقال : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾

والملاحظ أنه لم يذكر الفعل (اذكر) فيما ورد من قصص الأنبياء في سورة الأنبياء ، بل يذكرهم على تقدير الفعل وذلك قوله : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ ﴾ ، وقوله : ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ .

وهو يذكر الفعل فيما ورد في القصص في سورة (ص) ابتداء من قوله

تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ (١٧)﴾، وقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ (٤١)﴾ وقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ (٤٥)﴾، وقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ (٤٨)﴾.

ومن لطيف التناسب أن سورة (ص) تبدأ بقوله: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ فكان من ذلك أن ذكرهم بالفعل (اذكر).

وختم هذه الآيات بقوله: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ (٤٩)﴾.

ومن لطيف ذلك أيضًا أن يذكر الذكر والتذكر وما إلى ذلك في التعقيب على كل قصة من هذه القصص أو في أثنائها. فقد قال بعد قصة سيدنا داود: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٢٩)﴾.

وقال على لسان سيدنا سليمان: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي (٣٢)﴾.

وقال في أيوب عليه السلام: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٤٣)﴾.

وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ (٤٦)﴾.

وقال بعد أن ذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ (٤٩)﴾.

وختم السورة بقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ (٨٧)﴾

وهذا من لطيف التناسب.

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾

الضُّرّ بالضم: كل ما كان من سوء حال وفقر و شدة في بدن.

والضَّرّ بالفتح ضد النفع[1].

و(رحمة) مفعول لأجله، والرحمة هي لأيوب ولكل عابد، والذكرى لغيره (رحمة) من العابدين ليتعظ ويتذكر فيصبر إذا أصابه ضر فتدركه رحمة ربه فيثاب ثوابًا مضاعفًا.

جاء في (الكشاف): «ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب... ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ لرحمتنا العابدين وأنا نذكرهم بالإحسان لا ننساهم، أو رحمة منا لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة»[2].

وقال ههنا: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ ويقول في مواضع أخرى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

والملاحظ في القرآن أنه يستعمل ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ للمؤمنين خاصة.

وأما ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فيستعملها عامة للمؤمن وغيره. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴿٥٠﴾﴾.

جاء في (البرهان في متشابه القرآن) للكرماني: «وقال: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ لأن (عندنا) حيث جاء دل على أن الله سبحانه تولى ذلك من غير واسطة»[3].

وقد بينا ما ورد من التشابه والاختلاف في هذه القصة في سورتي الأنبياء و(ص) في شرحنا لقوله تعالى في سورة يس: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: ٤٣ ـ ٤٤].

---

(١) انظر لسان العرب (ضرر).

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٠ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣٣٤.

(٣) البرهان ٢٤٣.

فلا نعيد القول فيه[١].

ومن الملاحظ أنه قال تعالى هنا: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا﴾ فقال: (فكشفنا) بالفاء.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

وقد يأتي بعد الاستجابة بالواو وذلك نحو قوله تعالى في يونس عليه السلام: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

وقوله في زكريا عليه السلام: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ ﴿٩٠﴾﴾.

ومن المعلوم أن الفاء تفيد التعقيب والترتيب، وأما الواو فلمطلق الجمع، فلم الاختلاف؟

فنقول: إن كل تعبير ناسب موضعه الذي ورد فيه.

فإنه ذكر في نوح أن كربه عظيم فقال: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾، والكرب العظيم يستدعي الإسراع في النجاة.

وقد تقول: لكنه وصف كربه بأنه عظيم في موضع آخر ولم يأت بالفاء بل جاء بالواو وذلك قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

فما الفرق؟

فنقول: لقد ذكر في الأنبياء أمرين كل منهما يستدعي النجاة وهما الكرب العظيم وإساءة قومه إليه، قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ

---

(١) انظر (على طريق التفسير البياني ـ ج ٢) سورة يس ٢ / ١٧٩ وما بعدها.

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ .

فذكر أمرين .

وأما في الصافات فذكر أمرًا واحدًا ولم يذكر قومه فناسب الإسراع في النجاة في الأنبياء .

وقال في أيوب إنه دعا ربه بذكر أعلى صفات الرحمة فقال: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ .

وسعة الرحمة تستدعي الإسراع في النجاة .

وأما يونس فقد فعل ما هو خلاف الأَولى ، فقد ذهب مغاضبًا قومه من دون أن يأذن له سبحانه بذاك .

وأقر بظلمه لنفسه قائلاً : ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وليس من ظلم نفسه كمن لم يظلم نفسه. ولذا ذكره في موضع آخر أنه سبحانه نبذه بالعراء وهو سقيم وأنبت عليه شجرة من يقطين ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٥ ـ ١٤٦] .

وقال سبحانه لنبيه : ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٨ ـ ٤٩] .

فلم يأت بالفاء الدالة على التعقيب .

وأما ما فيه زكريا عليه السلام فإنه ليس ككرب نوح ولا كضرّ أيوب ، والأمر فيه سعة .

ولا شك أنه وهب له يحيى بعد حمل أمه له .

فلم يستدع ذلك التعقيب بالفاء ، والله أعلم .

* * *

﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ذكر هؤلاء بعد أيوب لاشتراكهم في الصفة التي ذكر بها أيوب وهي الصبر وذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ ﴾ [ص: ٤٤].

يدل على ذلك أنه ختم الآية بقوله: ﴿ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

جاء في (روح المعاني): «أي كل واحد من هؤلاء (من الصابرين) على مشاق التكاليف وشدائد النوب، ويعلم هذا من ذكر هؤلاء بعد أيوب عليهم السلام» (١).

وجاء في (التحرير والتنوير): «عطف على أيوب، أي وآتينا إسماعيل وإدريس وذا الكفل حكمًا وعلمًا. وجمع هؤلاء الثلاثة في سلك واحد لاشتراكهم في خصيصة الصبر كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾. جرى ذلك لمناسبة ذكر المثل الأشهر في الصبر وهو أيوب» (٢).

ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

جعل الصلاح سببًا للدخول في رحمته سبحانه.

وقد بينا نحو هذا التعبير في قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ وذلك في سيدنا لوط عليه السلام.

* * *

(١) روح المعاني ١٧ / ٨٢.
(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ١٢٨.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨ ﴾

وردت قصة يونس في أكثر من موضع وهي لم تتكرر شأن القصص القرآني.

فقد وردت في سورة يونس والأنبياء والصافات والقلم.

أما في يونس فقد وردت الإشارة إلى قومه وإيمانهم في آية واحدة، فذكر ربنا سبحانه أنه استثناهم من سائر القرى والأقوام فقد آمنوا فلم يعذبهم وذلك قوله سبحانه:

﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ۝٩٨ ﴾

ووردت في سورة الأنبياء فلم يذكر دعوته ولا موقفًا له مع قومه سوى أنه خرج مغاضبًا فوقع في غم فدعا ربه فنجاه منه. ولم يذكر ما هذا الغم سوى أنه قال إنه نادى ربه في الظلمات، ولم يذكر ما هذه الظلمات.

وهذا ما ورد منها:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨ ﴾

ووردت في الصافات وهي أكثرهن تفصيلاً وذكر فيها ما لم يذكره في المواطن الأخرى من أبقه إلى الفلك، أي هرب من غير خوف، وأنه ساهم أي اقترع فلم يفلح في القرعة، وأنه ألقي في البحر فالتقمه الحوت ثم نجاه الله من بطن الحوت فنبذه بالعراء وهو مريض، وأنبت عليه شجرة

من يقطين وأرسله إلى قومه وذكر عددهم ، وأن قومه آمنوا فمتعهم ربهم إلى حين .

وهذا ما ورد في الصافات :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

وأما في سورة القلم فإنه لم يذكر من هذه القصة إلا مخاطبة الله لرسوله أن يصبر وألا يكون كصاحب الحوت إذ دعا ربه وهو مكظوم فتداركته نعمة من ربه فاجتباه ربه فجعله من الصالحين .

وهذا ما ورد منها في هذه السورة .

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

فأنت ترى أنها ليست متطابقة ، بل ذكر في كل موضع ما أراد سبحانه أن يركز عليه وما يتناسب مع السياق الذي ورد فيه ذكره .

والآن نرجع إلى ما ورد منها في سورة الأنبياء للنظر فيها من الناحية البيانية .

* * *

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

ورد اسمه عليه السلام وهو يونس في أكثر من موضع .

وورد هنا باسم ذي النون ، وورد في موضع آخر باسم صاحب الحوت.

والنون هو الحوت ، وذو النون أي صاحب الحوت.

وفَرّق النحاة بين (ذو) و(صاحب) أن (ذا) لا تضاف إلى مضمر ولا إلى وصف وإنما تضاف إلى اسم ظاهر غير صفة ، وما خالف ذلك فهو نادر(١).

وأما (صاحب) فتضاف إلىظاهر ومضمر ، ووصف وغير وصف فتقول: (هو صاحبنا) ، وهو صاحب القائمين بالحق ، وهو صاحب الراكع الساجد محمود.

والملاحظ في استعمال القرآن لهاتين اللفظتين أنه يستعمل (ذا) للعاقل وغيره ، ولم يستعمل كلمة (صاحب) إلا للعاقل.

قال سبحانه: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢].

وقال: ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤].

وقال: ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وهي هنا لغير العاقل.

وقال: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال: ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦].

وقال: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وهي هنا للعاقل.

ومن الأعلام المصدرة بذي في القرآن (ذو القرنين) و(ذو الكفل).

---

(١) انظر شرح الأشموني ١ / ٧٣ ، شرح التصريح ١ / ٦٣.

أما (صاحب) فلم ترد إلا للعاقل: مفردة أو مثناة أو مجموعة، (كصاحب الحوت)، وقوله: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

ونحو أصحاب الجنة وأصحاب النار وأصحاب الحجر وأصحاب مدين وأصحاب موسى وغير ذلك.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه لم يرد من هاتين الكلمتين وصف له سبحانه إلا كلمة (ذي) نحو: (والله عزيز ذو انتقام) و(ذو العرش المجيد) و(ذو رحمة واسعة) و(ذو فضل على الناس) و(ذو الجلال والإكرام) و(ذو عقاب أليم).

والذي يبدو من استعمال هاتين اللفظتين أن (ذا) كأنها تستعمل أحيانًا لما هو أخص وألصق فلا يصح أو لا يحسن استعمال (صاحب) محلها وذلك نحو قوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ فلا يحسن أو لا يصح أن يقال: (في يوم صاحب مسبغة).

وقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾

وقوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾

وقوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾

فإنه لا يصح استعمال (صاحب) مكانها.

ولا يصح في نحو قولك: (الدواء ذو مرارة) أن يقال: (الدواء صاحب مرارة).

إن لفظة (صاحب) قد تفيد المصاحبة ، وأما (ذو) فإنها قد تكون لما هو من صفات الشيء أو خصوصياته. فقولك مثلاً: (هو صاحب أبي بكر) لا يصح أن يقال بدله: (هو ذو أبي بكر) ، ولا يصح في قولك: (هو صاحب زيد) أن يقال: (هو ذو زيد).

وكذلك في أسماء الأعلام نحو (ذي القرنين) فلا يصح أن يقال فيه: (صاحب القرنين).

ونحوه: ذو يزن ، وذو رعين ، وذو نواس ، وذو الكلاع ، وهي ألقاب لبعض من ملوك اليمن التبابعة[1] .

وأما بالنسبة لاستعمال هذين الاسمين لسيدنا يونس عليه السلام فالذي يبدو ـ والله أعلم ـ أنه استعمل ذا النون فيما هو أمدح له. ذلك أنه استعمل (صاحب الحوت) في مقام النهي عن أن يكون رسول الله ﷺ مثله في قلة صبره ، قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ .

وأما اسم (ذي النون) فاستعمله في مقام تسبيحه واعترافه بظلمه لنفسه واستجابة ربه لدعائه ، ثم قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي إذا وقعوا في غم فسبحوا ربهم أنجاهم ربهم سبحانه كما نجى ذا النون ، فإن التسبيح ينجي من الغم ومدعاة لإجابة دعائهم. ولقد طلب سبحانه من نبيه عليه السلام عندما ضاق صدره بما يقول قومه أن يسبح بحمد ربه فقال له: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٨].

وقال له أيضًا: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ

---

(١) انظر (لسان العرب) (ذو) ٢٠ / ٣٤٥.

﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال في ذي النون: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤].

جاء في (الإتقان) للسيوطي: «قال السهيلي: الوصف بـ (ذو) أبلغ من الوصف بصاحب، والإضافة بها أشرف. فإن (ذو) يضاف للتابع و(صاحب) يضاف إلى المتبوع، تقول: أبو هريرة صاحب النبي، ولا تقول: النبي صاحب أبي هريرة.

وأما (ذو) فإنك تقول: ذو المال وذو العرش، فتجد الاسم الأول متبوعًا غير تابع. وبني على هذا أنه تعالى قال في سورة الأنبياء: (وذا النون) فأضافه إلى النون وهو الحوت.

وقال في سورة (نون): ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾، قال: والمعنى واحد ولكن بين اللفظين تفاوت كثير في حسن الإشارة إلى الحالين. فإنه حين ذكره في معرض الثناء عليه أتى بـ (ذي) لأن الإضافة بها أشرف، وبالنون لأن لفظه أشرف من لفظ الحوت لوجوده في أوائل السور، وليس في لفظ الحوت ما يشرفه بذلك، فأتى به وبصاحب حين ذكره في معرض النهي عن اتباعه» (١).

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

أي ذهب غاضبًا على قومه لعدم استجابتهم له من دون أن يأذن الله له بذلك فتركهم ليدعو إلى دين الله في مكان آخر، وظن أن ذلك يسوغ له وأن الله لن يضيق عليه وأن في الأمر سعة.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢ / ٢٩٢ ـ ٢٩٣ وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤ / ٢٧٩.

ومعنى (لن نقدر عليه) لن نضيق عليه كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦].

جاء في (الكشاف): «(النون): الحوت، فأضيف إليه.

برم بقوله لطول ما ذكرهم فلم يذكروا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضبًا لله وأنفة لدينه وبغضًا للكفر وأهله.

وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت...

(فقدر عليه) فسرت بالتضييق عليه»[١].

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

الفاء فصيحة أفصحت عن المحذوف وهو ما كان من المساهمة وهي الاقتراع وإلقائه في البحر والتقام الحوت له.

أي ركب الفلك فساهم فدحض في المساهمة ولم يفلح، فألقي في البحر فالتقمه الحوت فنادى ربه.

جاء في (روح المعاني): «(فنادىٰ) الفاء فصيحة أي فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت فنادىٰ.

(في الظلمات) أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت جعلت الظلمة لشدتها كأنها ظلمات... أو الجمع على ظاهره والمراد ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل»[٢].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٥.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٨٤، وانظر فتح القدير ٣ / ٤١٠، ابن كثير ٣ / ١٩٢.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إقرار بظلمه لنفسه.

وقال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فوصف نفسه بالظلم الثابت فجاء بالصيغة الاسمية، ذلك أنه استعظم ما فعله من غير إذن ربه له.

جاء في (التحرير والتنوير) في قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «مبالغة في اعترافه بظلم نفسه»(١).

ولعل في هذا الترتيب إشارة إلى ما يحسن بالداعي أن يفعله وهو البدء بالثناء على الله ثم يدعو بحاجته والله أعلم.

والمقصود بالنداء هنا الدعاء، بدليل قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

ذكرنا في موضع سابق من السورة مجيء التنجية بالواو ومجيئها بالفاء، ومنها ما ورد في هذه الآية فلا نعيد القول فيه.

ومن الملاحظ أن قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فقال أولاً: (نجيناه) ثم قال: (وكذلك نُنْجي).

و(نُنْجي) مضارع (أنجى ـ أنجينا).

فاستعمل (نجى) أولاً، واستعمل (أنجى) بعد ذلك. وقد ذكرنا في أكثر من موضع أن (نجى) يفيد التلبث والتمهل في التنجية، وأن (أنجى) يفيد الإسراع فيها. فإن (أنجى) أسرع من (نجى) في التخليص من الشدة والكرب(٢).

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٣٢.

(٢) انظر كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) ص ٧٤ وما بعدها.

فاستعمل (نجى) الذي يفيد المكث والتلبث مع رسوله ، واستعمل (أنجى) الذي يفيد الإسراع في النجاة مع المؤمنين ، ذلك لأن الرسل أعظم صبرًا من عامة المؤمنين. ولذلك قال: (ننْجي) مع المؤمنين ، أي يخلصهم ربنا مما هم فيه بسرعة لأنهم ليس لهم صبر كصبر الرسل. وهذا من لطف الله بهم ورحمته لهم.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

جاء في (نظم الدرر): «ذكر التنجية أولاً يدل على مثلها ثانيًا ، وذكر الإنجاء ثانيًا يدل على مثله أولاً.

وسر ذلك الإشارة إلى شدة العناية بالمؤمنين ؛ لأنهم ليس لهم كصبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أشار إليه بحديث: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) (يبتلى المرء على قدر دينه) فيسلّهم سبحانه من البلاء كما تسلّ الشعرة من العجين ، فيكون ذلك مع السرعة في لطافة وهناء» [1].

* * *

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾

وردت قصة زكريا في ثلاثة مواضع من القرآن: في آل عمران ، وفي سورة مريم ، وفي هذا الموضع من سورة الأنبياء.

وهي أيضًا ليست متطابقة شأن ما ذكرنا عن القصص القرآني.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٢/ ٤٦٧.

فقد ذكر ربنا في آل عمران أن زكريا دعا ربه أن يهب له ذرية طيبة ولم يخص الذرية بكونها ذكرًا أم أنثى ، وذلك لما رأىٰ ما أكرم الله به مريم في أنها كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا من عند الله ، فدعا ربه أن يهب له ذرية طيبة.

وأما في سورة مريم فقد ذكر زكريا حاله من شيخوخته ووهن عظمه وعقر زوجه داعياً ربه أن يهب له وليًّا يرثه ، وطلب من ربه أن يجعله رضيًّا.

وقد ذكرنا ما ورد من هذه القصة في سورتي آل عمران وسورة مريم وبينّا جانبًا من الناحية البيانية فيهما في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) في باب تعاور المفردات ، فلا نعيد القول فيه.

وأما ما ورد في سورة الأنبياء فهو طلب موجز وذلك قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾.

فاستجاب له ربه بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾

ولم يذكر صفة يحيى كما ذكر في آل عمران بقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

أو في سورة مريم من وصفه له بقوله: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٣ ـ ١٤].

ولم يذكر تعجب زكريا من ذلك ولا طلبه أن يجعل له آية كما في الموضعين الآخرين.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نلاحظ أنه قال في سورة مريم: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي. . .﴾

فجمع بين النداء والقول: (نادى) و(قال) ، في حين قال في الأنبياء:

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾

فاكتفى بفعل النداء ، ولم يقل: (إذ نادى ربه قال رب) وذلك أنه تبسط في النداء والدعاء في مريم ، وأوجز في النداء والدعاء في الأنبياء .

فناسب التفصيل التفصيل ، وناسب الإيجاز الإيجاز .

ثم إن الجمع بين النداء والقول يفيد التوكيد إضافة إلى التبسط ، فإنه جمع ما فيه معنى القول والقول ، فناسب التفصيل والإلحاح في الطلب أن يجمع بينهما في مريم .

وقد بينا ذلك بصورة مفصلة في كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) وعرضنا لهاتين الآيتين فيما عرضنا من الأمثلة(١) .

ونعود الآن إلى القصة للنظر في شيء من الناحية البيانية .

* * *

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

إن مناسبة قصة زكريا لما ذكر قبلها في هذه السورة أنه «لما كان حاصل أمر يونس عليه السلام أنه خرج من بطن لم يعهد الخروج من مثله عطف عليه قصة زكريا عليه السلام في هبته له ولدًا من بطن لم يعهد الحمل من مثله في العقم واليأس ناظرًا إلى إبراهيم عليه السلام أول من ذكر تصريفه في آحاد العناصر فيما اتفق له من مثل ذلك في ابنه إسحاق عليه السلام . . .

تلاه بإبداع ابن خالته عيسى عليه السلام الذي هو علم للساعة على حال أغرب من حاله فأخرجه من أنثى بلا ذكر» (٢) .

---

(١) الجملة العربية تأليفها وأقسامها ٢١٥ ـ ٢١٦ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٢ / ٤٦٨ ـ ٤٧٠ .

ومن الملاحظ فيما ورد من القصص الواردة في هذه السورة أن المناداة من الأنبياء لربهم سبحانه لم تذكر على صورة واحدة.

فقد قال في (نوح) عليه السلام: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٧٦]

ولم يقل إنه نادى ربه ولكن علم من قوله: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أنه نادى ربه.

وقال في أيوب: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴿٨٣﴾﴾ فقال: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ ، وعرض حاله ، ولم يطلب شيئًا صريحًا ، ولكن علم من عرض الحال أنه دعا بكشف الضر.

وقال في ذي النون: ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وهذا واضح أنه نادى ربه ، إلا أنه ذكر ذلك بصورة التوحيد والتنزيه. فقوله: (لا إله إلا أنت) هو توحيده سبحانه ونفي الشرك. وقوله: (سبحانك) تنزيه له عن كل نقص.

وذكر أنه كان ظالمًا لنفسه.

ولم يصرح بطلب شيء معين ولكن علم من قوله سبحانه: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أنه كان في غم.

وأما دعوة زكريا فهي تختلف عن كل ما ورد.

فقد قال: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ .

فذكر أنه نادى ربه.

وذكر مناداته له بقوله: (رب) ، ولم يذكر عن أحد ممن ورد في السورة ذلك.

وذكر طلبه الصريح وهو قوله: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾

ولم يذكر مثل ذلك عن أحد من الأنبياء ممن ورد في السورة.

فالمناداة متدرجة.

إذ نادى

إذ نادى ربه

فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت (بالخطاب لله سبحانه)

إذ نادى ربه رب

وأما الدعاء فلم يكن بالفحوى ولا بعرض الحال فيما ذكر عن نوح.

وكان بعرض الحال في أيوب.

وكان بذكر ظلم النفس فيما ذكر عن يونس.

وكان بالطلب الصريح في قصة زكريا.

ومن اللطيف في ذكر الخطاب لله سبحانه أن يكون كل خطاب مناسبًا لحال الداعي.

فلما قال أيوب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ ذكر صفة الرحمة بقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ليرحمه ويكشف عنه الضر.

ولما ذكر يونس ظلمه لنفسه وتقصيره بحق ربه قال لربه: (سبحانك) فنزهه عن كل نقص. فالعبد مقصر ظالم لنفسه، والله سبحانه منزه عن كل نقص.

ولما قال زكريا: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ فطلب ذرية ترثه قال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾

فناسب كل تذييل حال الداعي.

وقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ يعني لا تتركني وحيدًا بلا وارث يرثني.

وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي أنت خير من يرث خلقه، فإنك «إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث» (١).

وجاء في (روح المعاني): أن المراد «وأنت خير حي يبقى بعد ميت. وفيه مدح له تعالى بالبقاء وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء» (٢).

وقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ يعني أنه «أصلحها للولادة بأن أزال عنها المانع» (٣).

والظاهر أنه أصلحها لكل ما يحسن بالزوجة أن تكون.

«وقدم هبة يحيىٰ مع توقفها على إصلاح الزوج للولادة لأنها المطلوب الأعظم، والواو لا تقتضي ترتيبًا» (٤).

والتقديم إنما يكون بحسب الأهمية تبعًا لما يقتضيه السياق.

وليس بالضرورة تقديم المتقدم حسًّا أو وجودًا.

فقد يقدم المتأخر لمقتضى بياني وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

فقدم السجود على الركوع مع أن الركوع أسبق.

وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٥].

والأم والأب أسبق من الأخ.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٦.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٨٧.

(٣) التفسير الكبير ٨ / ١٨٢.

(٤) روح المعاني ١٧ / ٨٧.

وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

ومن ذكر من بعد عيسى أسبق منه.

وداود أسبق من سليمان ابنه لكنه ذكر بعده.

وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٤ ـ ٦].

وعاد أسبق من ثمود.

وقد بينا ذلك من التقديم والتأخير في أكثر من موضع في كتاب (التعبير القرآني)، وفي كتاب (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) وغير ذلك من المواضع.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

الظاهر أن الضمير في (إنهم) يعود على الأنبياء المذكورين، أي أن استجابتنا لهم إنما كان بسبب مسارعتهم في الخيرات ودعائهم لنا.

جاء في (الكشاف): «(إنهم) الضمير للمذكورين من الأنبياء عليهم السلام، يريد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم في تحصيلها كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون»(١).

وجاء في (البحر المحيط): «والضمير في (إنهم) عائد على الأنبياء السابق ذكرهم، أي أن استجابتنا لهم في طلباتهم كان لمبادرتهم الخير ولدعائهم لنا... وقيل الضمير يعود على زكريا وزوجه وابنهما يحيى»(٢).

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٦.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٣٦.

وقال: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ ولم يقل: (يسارعون إلى الخيرات) لأنهم فيها وهم يجدّون في عملها. ولو قال: (يسارعون إلى الخيرات) لكان المعنى أنهم يتجهون إليها وليسوا فيها.

ونحو ذلك قوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [المائدة: ٤١] فقال: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ لأنهم كفار يجدّون في الكفر، ولم يقل: (يسارعون إلى الكفر) أي يسرعون إليه.

جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ تعليل لما فصل من فنون إحسانه تعالى المتعلقة بالأنبياء المذكورين. أي كانوا يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير، وهو السر في إيثار كلمة (في) على كلمة (إلى) المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين إليها كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾»[1].

وجاء في (روح المعاني) في هذا التعبير: «والمعنى أنهم كانوا يجدّون ويرغبون في أنواع الأعمال الحسنة. وكثيرًا ما يتعدىٰ (أسرع) بـ (في) لما فيه من معنى الجد والرغبة، فليست (في) بمعنى (إلى)، أو للتعليل»[2].

﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾.

أي رغبًا في رضاء الله وطاعته، وخوفًا من معصيته وعقابه، كما قال تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ورغبًا ورهبًا يحتمل أن يكونا مصدرين في موضع الحال، أي راغبين وراهبين، كما يحتمل أن يكونا مفعولاً لأجله[3]، «وهو كقوله تعالى:

---

(١) تفسر أبي السعود ٣ / ٧٢٤.
(٢) روح المعاني ١٧ / ٨٧.
(٣) انظر البحر المحيط ٦/ ٣٣٥.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩]»[١].

وقدم المسارعة في الخيرات لأنها مدعاة إلى إجابة الدعاء، فالمسارع في الخيرات أدعى أن يجاب دعاؤه.

﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

أي متضرعين خائفين متذللين له.

جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ أي مخبتين متضرعين أو دائمي الوجل.

والمعنى أنهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة»[٢].

وقيل: متواضعين[٣].

* * *

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

إن مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، ذلك أنه ذكر قبل الآية ولادة يحيى من أبوين لا يولد لهما في العادة، فأبوه زكريا عليه السلام شيخ كبير واهن العظم، وأمه عاقر.

وذكر في هذه الآية ما هو أعجب وأغرب وهو ولادة عيسى من أم بلا أب.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٦.

(٢) تفسير أبي السعود ٣/ ٧٢٤.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٣٦.

لقد ورد نحو هذا المعنى في سورة التحريم وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

ومن الملاحظ أن هناك تشابهًا واختلافًا بين التعبيرين.

من ذلك:

أنه ذكر اسم مريم في آية التحريم، ولم يذكره في آية الأنبياء.

وقال في آية الأنبياء: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ بتأنيث الضمير في (فيها).

وقال في آية التحريم: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ بتذكير الضمير في (فيه).

وذكر ابنها في آية الأنبياء، ولم يذكره في آية التحريم.

وقد ذكرنا جانبًا من الملاحظ البيانية في ذلك في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) في موضع (التشابه والاختلاف) [1] فلا نعيد القول فيه.

قد تقول: لقد قال في آية الأنبياء هذه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فقدم ضمير الأم على الابن.

وقال في سورة (المؤمنون): ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

فقدم الابن على أمه، فلم ذاك؟

فنقول: إن كل تعبير هو المناسب في سياقه.

فإن الكلام في آية الأنبياء على مريم فقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا

---

(١) من أسرار البيان القرآني ١٥٩ ـ ١٦١.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ فناسب تقديمها.

وأما آية (المؤمنون) فقد وردت في سياق إرسال الرسل إلى أممهم، فقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم ذكر إرسال موسى وأخيه هرون (٤٥).

ثم ذكر قبل الآية إيتاء موسى الكتاب فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

فناسب تقديم ابنها الذي هو رسول من رسل الله.

ثم خاطب بعد الآية الرسل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴿٥١﴾﴾.

فناسب هذا أيضًا تقديم ابن مريم الذي هو رسول فدخل في المخاطبين.

هذا إضافة إلى أنه لم يذكر أمه التي أحصنت فرجها فنفخ فيها من روحه فلم يقدم ضمير أمه.

قد تقول: إن آية الأنبياء وردت أيضًا في سياق الرسل فما الفرق؟

فنقول: ليس الأمر كذلك، فإن سياق آيات الأنبياء في إجابة من دعا من الرسل والأنبياء وما تفضل به عليهم وليس في سياق إرسال الرسل إلى أقوامهم، بخلاف السياق في آيات سورة (المؤمنون)، فإنه في الكلام على الرسل وتبليغ دعوة الله إلى أقوامهم وموقف أقوامهم منهم.

وهذا واضح من النظر في كل من السياقين.

فإن قصة نوح في الأنبياء وردت في آيتين، ووردت في سورة (المؤمنون) في سبع آيات، من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية التاسعة والعشرين.

ثم ذكر رسولاً بعد ذلك وتبليغه دعوة ربه وموقف قومه منه في إحدى عشرة آية ، من الآية الثانية والثلاثين إلى الآية الثانية والأربعين.

ثم ذكر رسلاً آخرين على العموم ، وذكر بعد ذلك موسى وهارون وإرسالهما إلى فرعون وملئه.

ثم ذكر بعد ذلك ابن مريم. فناسب تقديمه مناسبة للسياق الذي وردت فيه الآية.

ومن المناسب هنا أن نذكر مناسبة ما ختم به آية (المؤمنون) وهو قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ لما جاء بعدها وهو قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ فقوله: ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ مناسب لما بعدها وهو قوله: ﴿ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

فقوله: (ذات قرار) يعني ذات ثمار وزروع وماء جارٍ.

والمعين: الماء الظاهر الجاري(١).

ومناسبتها ظاهرة لقوله بعدها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

* * *

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

أي إن هذه ملتكم ملة واحدة وهي ملة الإسلام ، وهي الملة التي كان عليها الأنبياء والمرسلون وهي متفقة في أصولها ولا تختلف إلا في الفروع كما قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٦٣ ، روح المعاني ١٨ / ٣٨ ـ ٣٩.

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال لنبيه خاتم الرسل: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ١٦١].

وقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

جاء في (الكشاف): «الأمة: الملة، و(هذه) إشارة إلى ملة الإسلام. أي إن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها، يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة... والخطاب للناس جميعًا»(١).

وجاء في (البحر المحيط): «ويحتمل أن تكون (هذه) إشارة إلى الطريقة التي كان عليها الأنبياء المذكورون من توحيد الله تعالى هي طريقتكم وملتكم طريقة واحدة لا اختلاف فيها في أصول العقائد، بل ما جاء به الأنبياء من ذلك هو ما جاء به محمد ﷺ»(٢).

* * *

﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أي إن ذوي الملل السابقة تقطعوا أمرهم بينهم وتفرقوا وخالفوا أمر ربهم وعبدوا آلهة متعددة فأصبحوا فرقًا شتى. ثم توعدهم بأنهم سيرجعون إلى ربهم وهو محاسبهم.

جاء في (الكشاف): «والأصل (وتقطعتم) إلا أن الكلام صرف إلى

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٦.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٣٧.

الغيبة على طريقة الالتفات ، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم. . .

والمعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعًا كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه. . . تمثيلاً لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقًا وأحزابًا شتى ، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو محاسبهم ومجازيهم»[1].

قد تقول: لقد قال في موضع آخر:

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢ ـ ٥٣].

وواضح أن هناك تشابهًا واختلافًا بين النصين.

فقد قال في آية الأنبياء: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾

وقال في آية (المؤمنون): ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾

وقال في سورة (المؤمنون): زُبُرًا.

ولم يقل ذلك في آية الأنبياء.

وقال: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓا۟﴾ بالواو في آية الأنبياء.

وقال: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟﴾ بالفاء في آية المؤمنون.

ثم إن خاتمة كل من الآيتين مختلفة عن الأخرى.

وقد بينا ذلك في كتابنا: (التعبير القرآني) في باب (الحشد الفني). فلا موجب لتكراره.

* * *

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

أي من يعمل بعض الصالحات أو يعمل بعضًا من الصالحات.

و(من يعمل بعض الصالحات) أي يعمل عملاً أو أكثر من الأعمال الصالحة.

و(من يعمل بعضًا من الصالحات) أي يعمل جزءًا من العمل الصالح وإن لم يستوفه كله أو أن يشترك مع جماعة في عمل صالح كأن يشترك مع جماعة لإنقاذ شخص من الغرق أو إطفاء حريق في دار ونحو ذلك.

فـ (من) تفيد التبعيض.

والكفران هو جحود النعمة وسترها وعدم شكرها.

فمعنى (لا كفران لسعيه) أي لا نجحد عمله ولا نحرمه ثوابه.

وقال: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ ولم يقل: (لا نكفر سعيه) لأن ذلك أبلغ، فإنه نفى الجنس بـ (لا) فلا يحرمه شيئًا من الثواب.

وقال: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ ولم يقل: (فلا كفران لما عمل) ليدل على أن السعي في الصالحات له أجر وإن لم يفعلها.

فإنه إذا سعى ليعمل صالحًا وهو مؤمن كان له في سعيه ثواب حتى وإن لم يتمكن من فعله. فإن السعي في طلب الحسنات له أجره، كما أن السعي في السيئات عليه وزره كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

وقال: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي مثبتون ذلك في صحيفة عمله لا نترك شيئًا من ذلك.

وقال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ ولم يقل: (إنا سنكتب عمله) لأن ذلك آكد وأقوى، فقد جاء بالاسم الدال على الثبوت.

لقد قال سبحانه فيمن يسعى في عمل بعض الصالحات: لا كفران لسعيه، وأما من سعى فيما هو أعلى من ذلك فقد ذكر أن له الشكر. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

فمن أراد الآخرة وسعى حقها من السعي كما ينبغي فقد قال فيه: ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

والمشكور: المجزي على عمله مع الإنعام عليه «والشكر من الله المجازاة والثناء الجميل» (١).

والفرق ظاهر بين قوله: (لا كفران لسعيه) وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

فإن قوله: (لا كفران لسعيه) يعني لا نجحد جزاء عمله وإنما نوفيه حقه.

وأما قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ فيعني الجزاء والثناء الجميل.

وتوضيح ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ أن الطالب الداخل في الامتحان يعطى على مقدار إجابته لا يحرم من ذلك شيئًا. فإذا أجاب عن سؤال

---

(١) لسان العرب (شكر).

واحد أعطي حقه عن ذلك ، وإن أجاب عن أكثر من ذلك أعطي حقه ولا يشكر على ذلك.

إذ الشكر إنما يكون على ما هو أعلى من ذلك من الإصابة والإحسان والزيادة في العلم ونحو ذلك.

جاء في (الكشاف): «(الكفران) مثل في حرمان الثواب ، كما أن الشكر مثل في إعطائه إذا قيل لله: شكور.

وقد نفى الجنس ليكون أبلغ من أن يقول: فلا نكفر سعيه.

﴿ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي نحن كاتبو ذلك السعي ومثبتوه في صحيفة عمله» (١).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ تفصيل للجزاء ، أي فمن يعمل بعض الصالحات أو بعضًا من الصالحات ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسله ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي لا حرمان لثواب عمله ذلك.

عبر عن ذلك بالكفران الذي هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه. . . وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى ونفي الجنس للمبالغة في التنزيه.

وعبر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به.

(وإنا له) أي لسعيه (كاتبون) أي مثبتون في صحائف أعمالهم لا نغادر من ذلك شيئًا» (٢).

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٧.

(٢) تفسير أبي السعود ٣/ ٧٢٥.

لقد ذكر سبحانه في الآية أن من يعمل بعض الصالحات أو بعضًا منها فلا يكفر سعيه.

وأما من عمل الصالحات فله أعلى الجزاء.

ولا شك أن من عمل بعض الصالحات ليس كمن عمل الصالحات.

قال تعالى فيمن يعمل بعض الصالحات: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾.

وقال أيضًا: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

وهو نظير ما ذكر في آية الأنبياء.

وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

في حين قال فيمن عمل الصالحات: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

والفرق ظاهر بين الجزاءين.

ومن الملاحظ فيما ورد من القصص القرآني في هذه السورة أنه قال في سيدنا إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿٧٢﴾﴾، والنافلة: الزيادة ـ كما ذكرنا ـ ويقصد بالنافلة يعقوب وهو ولد إسحاق، فقد وهبه له من غير أن يسأله إياه.

ولم يرد قوله: (نافلة) في غير هذا الموضع من قصة سيدنا إبراهيم.

ومن المناسب أن نذكر أنه سبحانه ذكر في القصص في هذه السورة ما لم يذكره في مواضع أخرى كما ذكر النافلة في قصة إبراهيم.

فقد قال في موسى وهارون: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا في موضع آخر من قصة موسى وهارون، أعني قوله: الفرقان وضياء وذكرًا للمتقين.

وقال في لوط: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا فيه في موضع آخر.

وقال في نوح عليه السلام: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا في موضع آخر.

وقال في داود وسليمان: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴿٧٩﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا فيهما في موضع آخر.

وقال في أيوب عليه السلام: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ ﴿٨٤﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا فيه في موضع آخر.

وقال في يونس عليه السلام: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا فيه في موضع آخر.

وقال في زكريا عليه السلام: ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ ﴿٩٠﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا في موضع آخر.

إلى غير ذلك، وهي من المناسبات اللطيفة في جو السورة.

* * *

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

أي إن عدم الرجوع إلى الحياة الآخرة ممتنع ، ومقتضى ذلك أن الرجوع واجب .

إن هذه الآية مناسبة لقوله سبحانه قبل الآية : ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

ومناسبة لقوله : ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ لأن ذلك إنما يكون في الآخرة .

ولقوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ لأن الغرض من كتابة السعي إنما هو للجزاء ، وذلك إنما يكون في الآخرة بعد رجوعهم إلى الحياة .

ومناسبة لما بعدها وهو ما ذكره من علامات الساعة وأحداث القيامة ورجوع الناس للحساب .

لقد قال : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ والضمير في (أهلكناها) يعود على القرية . ثم قال بعدها : ﴿ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ فذكر ضمير أهلها ، ولم يقل : (أنها لا ترجع) وذلك لأن أهلها هم الراجعون والمجزيون على أعمالهم .

إن القرية تطلق على المساكن والأبنية وهو الأصل ، وقد تطلق على أهلها الذين يسكنونها تجوزًا .

وقد استعملها القرآن للمعنيين .

قال تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ [الفرقان : ٤٠] .

وهي هنا للمساكن والأبنية .

وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١].

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

والمقصود بالقرية أهلها فهم الذين ظلموا ثم عاقبهم ربهم.

وقد يذكرالقرى ثم يعيد الضمير على أهلها وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

فذكر القرى وأعاد الضمير على أهلها فقال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ ولم يقل: (أهلكناها لما ظلمت).

وقد يذكر القرى ثم يذكر أهلها وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وقد يذكر أهل القرية كما قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١].

وقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧].

قد تقول: قد يقول ربنا عن القرية أحيانًا: (أهلكناها) بضمير التأنيث، ويقول أحيانًا عنها: (أهلكناهم) بضمير جمع التذكير مع أن الموطن يبدو متشابهًا.

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

فقال: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

فقال: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾.

فما الفرق؟

فنقول: إن التأنيث قد يفيد التكثير أو يفيد المبالغة. فإذا عبر بالمفرد المؤنث أفاد كثرة القرى المهلكة، أو أفاد المبالغة والشمول، أي إن التدمير الذي أصابها عام، أصابها وأصاب ساكنيها.

أو لملحظ آخر في السياق.

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

فأفاد كثرة القرى أن التدمير سيصيبها كلها على العموم والشمول، وربما أفاد إهلاكها وإهلاك من فيها.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]. ومعنى (خاوية): ساقطة سقوفها.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

فكل ذلك يفيد التكثير.

والآن نعود إلى الآيتين اللتين ذكرناهما وهما:

آية الأعراف وهي قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾

وآية محمد وهي قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

فقال في آية الأعراف: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾.

وقال في آية محمد: ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ .

ذلك أن القرى في آية الأعراف أكثر ، فقد خصص القرى في آية محمد بالقوة فقال: ﴿ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ ، وأطلقها في آية الأعراف فأفاد الكثرة فجاء بضمير المؤنث فيها ، والتأنيث قد يفيد الكثرة كما ذكرنا ، فناسب كل تعبير موضعه.

هذا إضافة إلى أنه سبق آية محمد ذكر من دمر الله عليهم وهم أهل القرى وساكنوها فقال: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾

فناسب ذكر إهلاك أهلها فقال: ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ .

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٩].

وقال في سورة الحج: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥].

فقال في آية الكهف: ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾

وقال في آية الحج: ﴿ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾

ذلك أنه قال في آية الحج: ﴿ فَكَأَيِّن ﴾ ، و(كأين) تفيد التكثير.

ولم يقل مثل ذلك في آية الكهف.

وأنه قال في آية الكهف: ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ بإسناد الظلم إلى جماعة الذكور فناسب ذلك قوله: ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ فإنهم لما ظلموا أهلكهم ، في حين أسند الظلم في آية الحج إلى القرية فقال: ﴿ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ فناسب ذلك قوله: ﴿ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ .

ومن ناحية أخرى أنه قال قبل آية الكهف: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ

﴿يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴿٥٨﴾﴾.

فوصف ربنا نفسه بأنه الغفور ذو الرحمة وأنه لا يؤاخذ الناس بما كسبوا وإلا لعجل لهم العذاب. فناسب ذلك عدم الكثرة في الإهلاك.

في حين أنه سبق آية الحج ذكر من أخذهم ربنا من الأقوام المهلكة ثم قال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤].

فناسب التكثير فجاء بضمير المؤنث الدال على الكثرة.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

* * *

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ﴾

على حذف مضاف، أي سد يأجوج ومأجوج[١] «فحذف المضاف وأدخلت علامة التأنيث في (فتحت) لما حذف المضاف لأن يأجوج ومأجوج مؤنثان بمنزلة القبيلتين. وقيل: حتى إذا فتحت جهة يأجوج»[٢].

ونحو هذا التعبير وارد في القرآن وذلك قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣] و﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١] بتأنيث الفعل على التقدير.

وجاء بـ (إذا) ولم يأت بـ (إن) لأن ذلك واقع لا محالة، فإن (إذا) يؤتى بها لما يقطع بوقوعه أو لما يكثر وقوعه.

وأما (إن) فيؤتى بها في الغالب في المعاني المحتملة الوقوع

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٧، البحر المحيط ٦ / ٣٣٩.

(٢) التفسير الكبير ـ المجلد الثامن ١٨٥.

والمشكوك في حصولها والموهومة والنادرة والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى[(١)]. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٢].

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣].

و(الحدب): ما ارتفع وغلظ من الأرض[(٢)].

(ينسلون): يسرعون.

وقال: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ بجماعة الذكور لأن المراد بذلك أفرادهم.

* * *

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝٩٧﴾

﴿ٱقْتَرَبَ﴾ أبلغ في القرب من (قرب)[(٣)] فإن افتعل أبلغ من (فعل) كصبر واصطبر، وكسب واكتسب.

﴿فَإِذَا﴾

الفاء واقعة في جواب الشرط، و(إذا) للمفاجأة.

---

(١) انظر معاني النحو ٤ / ٥٩ وما بعدها.

(٢) لسان العرب (حدب).

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٣٩.

والفاء وإذا كل منهما يقع جوابًا للشرط.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

وقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

و(إذا) في الآيتين جواب للشرط.

فإذا اقترنت الفاء بإذا الفجائية كان ذلك آكد. جاء في (الكشاف): «و(إذا) هي إذا المفاجأة، وهي تقع في المجازاة سادّة مسدّ الفاء... فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد» (١).

و(هي): ضمير القصة أو ضمير الشأن، ويسمى ضمير القصة إذا كان ما بعدها مؤنثًا. جاء في (البحر المحيط): «وضمير (هي) للقصة كأنه قيل: فإذا القصة والحادثة أبصار الذين كفروا شاخصة» (٢).

وضمير القصة إنما يؤتى به في مواطن التفخيم والتعظيم. فإنه لم يقل: (فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة) بل جاء بضمير الشأن لتفخيم الأمر وتعظيمه، فإن الموقف غير مألوف وهو أمر عظيم وأحداثه عظيمة.

و﴿شَاخِصَةٌ﴾ أي لا تطرف أجفانها «والشخوص إحداد النظر دون أن يطرف» (٣).

وقال: ﴿شَاخِصَةٌ﴾ بالاسم لأن ذلك يدل على ثبات الحال ودوامها.

وقدم الخبر ﴿شَاخِصَةٌ﴾ على المبتدأ (أبصار) ولم يقل: (فإذا هي أبصار الذين كفروا شاخصة) للاهتمام وتعظيم الأمر.

وقوله: ﴿يَاوَيْلَنَا﴾ مقول لقول محذوف، أي: يقولون يا ويلنا.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٧.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٣٩.

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٤٠.

وحذف فعل القول ليكون ذلك مشهدًا حاضرًا مشاهدًا محسوسًا وليس نقلاً عنه ، فكأننا نشاهدهم ونسمع قولهم .

﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾

أي كنا ساقطين في الغفلة تحيط بنا من كل جانب ، فإن (في) تفيد الظرفية . جاء في : (التحرير والتنوير) : «ودلت (في) على تمكن الغفلة منهم حتى كأنها محيطة بهم إحاطة الظرف بالمظروف» [١] .

وقال : ﴿ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ فجاء بـ (من) ولم يقل : (في غفلة عن هذا) للدلالة على أن الغفلة ابتدائية لازمة لهم لا عارضة ، أي هم في غفلة دائمة .

أما (عن) فللمجاوزة ، قال تعالى : ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٢] فقال : ﴿ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ ﴾ فجاء بـ (عن) التي تفيد المجاوزة للدلالة على أن الغفلة عارضة ، فهم قد استعدوا للقتال ومعهم أسلحتهم فود الذين كفروا لو يغفلون عنها ، بخلاف قوله : ﴿ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ فإن الغفلة هنا لازمة ، وأنهم لم يستعدوا للآخرة[٢] .

وجاء بـ (قد) الدالة على التحقيق والتأكيد .

قد تقول : لقد قال هنا : ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾

وقل في (ق) : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ [ق : ٢٢] .

فقال في آية الأنبياء : (قد) .

وقال في آية (ق) : (لقد) بإدخال اللام على (قد) .

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٥١ .

(٢) انظر معاني النحو ـ باب حروف الجر (من) ٣ / ٦٩ .

فلم ذاك؟

والجواب: إن هذه اللام الداخلة على (قد) هي اللام الواقعة في جواب القسم زيادة في التوكيد ، ذلك أن الموقف في سياق آية الأنبياء إنما هو في اقتراب الوعد الحق وليس في حصوله ، فهو في علامات الساعة.

وأما ما في (ق) فهو بعد مجيء الساعة وهو من أحداث القيامة. قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴾ [ق: ٢٠ ـ ٢٢].

فهو في أحداث القيامة فناسب التأكيد.

﴿ بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

«إضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة ، أي لم نكن في غفلة منه حيث نُبهنا عليه بالآيات والنذر ، بل كنا ظالمين بترك الآيات والنذر مكذبين بها ، أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب» (١).

لقد قال هنا: ﴿ بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ من دون توكيد.

في حين قال في آية أخرى: ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ بالتوكيد.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

فقال: ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ بالتوكيد ، ذلك أن هذه الآية في مسّهم شيء من العذاب ، في حين لم يذكر وقوع شيء من العذاب عليهم في الآية الأخرى ، فناسب التوكيد في موضعه دون الآية الأخرى.

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٩٣.

ونحو ذلك قوله تعالى في آية أخرى من سورة الأنبياء: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ فأكد ذلك بإن وذلك بعد وقوع العذاب.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فأكد بإن وذلك عند وقوع العذاب. قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

ونحوه قوله في سورة القلم: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وذلك بعد أن أهلك الله جنتهم وأبادها فأصبحت كالصريم بعد أن حرموا منها المساكين.

فالتأكيد إنما يكون بحسب ما يقتضيه المقام.

وهذا من دقيق مراعاة المقام على تباعد المواطن.

إن هذه الآية فيها حشد من الفن كثير، من ذلك:

١ ـ أنه قال: ﴿ٱقْتَرَبَ﴾ وهو آكد وأبلغ من قرب.

٢ ـ وقال: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ ولم يقل: (واقترب الأمر الحق) لأن هذا مما وعدتهم بهم الرسل وذكرته لهم. ولو قال: (الأمر الحق) لم يدل على أن هذا مما وعدوا به.

٣ ـ ووصف الوعيد بأنه الحق للدلالة على أنه وحده الحق، وأن كل وعد يخالفه باطل.

٤ ـ وقال: (فإذا) فجاء بفاء الجواب و(إذا) الفجائية للدلالة على تأكيد الأمر.

٥ ـ وقال: ﴿فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ﴾ ولم يقل: (فهي شاخصة) للدلالة على سرعة حدوث الأمر.

٦ ـ وجاء بضمير القصة فقال: ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ للدلالة على تعظيم الأمر وتفخيمه.

٧ ـ وقدم الخبر على المبتدأ فقال: ﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَـرُوا۟﴾ للاهتمام.

٨ ـ وقال: ﴿شَاخِصَةٌ﴾ بالاسم للدلالة على ثبوت ذلك، ولم يقل: (تشخص).

٩ ـ وقال: ﴿يَـٰوَيْلَنَا﴾ فحذف فعل القول، ولم يقل: (يقولون) للدلالة على أن هذا الأمر مشاهد مرئي.

١٠ ـ وقال: ﴿قَدْ كُنَّا﴾ بذكر ﴿قَدْ﴾ للتحقيق والتوكيد.

١١ ـ وقال: ﴿قَدْ كُنَّا﴾ ولم يقل: (لقد كنا) كما قال في (ق) ذلك أن آية الأنبياء في اقتراب الوعد الحق، وآية (ق) في أحداث القيامة وحصول الوعد الحق.

١٢ ـ وقال: ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ ولم يقل: (غافلين) للدلالة على السقوط في الغفلة وإحاطتها بهم.

١٣ ـ وقال: ﴿مِّنْ هَـٰذَا﴾ للدلالة على أن الغفلة ابتدائية لازمة.

١٤ ـ وقال: ﴿بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ فذكر صفة الظلم بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت.

١٥ ـ وقال: ﴿بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ ولم يقل: (إنا كنا ظالمين) لأنه

لم يذكر وقوع العذاب عليهم.

في حين قال في مواطن أخرى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فأكد الظلم لوقوع العذاب عليهم فصرحوا بالظلم المؤكد.

إلى غير ذلك من الأمور البيانية.

* * *

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾

الخطاب صالح لمن تقدم من الذين كفروا الذين قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

فقال لهم ربهمّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ويصلح أن يكون خطابًا لقوم الرسول الذين يعبدون ما يعبدون من دون الله.

وهذه عاقبة كل من كان كذلك.

والحصب: ما يحصب به، أي ما يرمى به، من (حَصَبَه) إذا رماه بالحصباء وهو الحصا والحجارة. قال تعالى في قوم لوط: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤].

وقال: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٧] والحاصب: هو الريح العاصف فيها حصا وحجارة.

وحصب جهنم: ما يرمى به في نار جهنم، جاء في (تفسير أبي السعود): «الحصب ما يرمى به ويهيج به النار، من حصبه إذا رماه بالحصباء»[1].

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٨ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣٤٠.

جاء في (لسان العرب): «وكل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به، ولا يكون الحصب حصبًا حتى يسجر به. [وقيل]: الحصب: الحطب الذي يلقى في تنور أو في وقود، فأما ما دام غير مستعمل للسجور فلا يسمى حصبًا»(١). فهم وما يعبدون من دون الله يحصب بهم في نار جهنم.

﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾

أي داخلون. وأصل التعبير (أنتم واردونها) والضمير (ها) مفعول به لاسم الفاعل.

قدم المفعول به على اسم الفاعل للاختصاص فصار (أنتم إياها واردون)، وجيء باللام لتقدم المفعول على عامله اسم الفاعل نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥].

أي حافظون فروجهم.

وهذه اللام تسمى اللام المقوية، أي مقوية للعامل الذي تأخر وهو هنا اسم الفاعل.

وقد رجحنا في كتابنا: (معاني النحو) أنها مقوية لمعنى الاختصاص وتوكيده(٢). أي أنتم تردونها لا تردون غيرها.

وجاء باسم الفاعل للدلالة على ثبات ذلك فكأن الأمر قد حصل.

لقد أكد الجزء الأول من الآية بـ (إن) فقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

ولم يؤكد الجزء الثاني منها وهو قوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾.

---

(١) لسان العرب (حصب).

(٢) انظر معاني النحو ـ باب حروف الجر (اللام) ٣ / ٦٣.

وذلك أن الجزء الأول أدعى إلى التوكيد ، فإنه ذكر أنهم وما يعبدون من دون الله يرمى بهم في جهنم .

وأما الجزء الثاني من الآية فإنه ذكر فيه أنهم لها واردون، أي داخلون .

و(ورد) معناها (دخل) ومعناها أيضًا : وصل إلى المورد من غير دخول كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ فإنه وصل إلى الماء ولم يدخله .

فالجزء الأول أصعب وأشد وأشق ، وذلك أنه جعلهم حصب جهنم ، أي حطبًا يرمى به في النار ، فأكد الجزء الأول لأنه أشد وأشق ، فهما ليسا بمنزلة واحدة ، فأكد ما هو أدعى إلى التوكيد .

* * *

﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

الإشارة بـ (هؤلاء) إلى ما يعبد من دون الله ، وقد ذكرها ربنا عما قريب فكانت الإشارة بما يدل على القرب .

كما هو إشارة إلى ما يعبده قومه ﷺ من كفار قريش .

وهذا غاية في الاحتجاج على ضعف معبوديهم وهوانهم ، وعلى أنهم أنأى شيء عن أن يكونوا آلهة .

﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أي كل من العابدين والمعبودين باقون فيها أبدًا .

وقدم (فيها) للقصر ، أي باقون فيها حصرًا وليس في مكان آخر .

فهم (لها واردون) لا يردون غيرها .

وهم (فيها خالدون) وليس في مكان آخر .

* * *

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾

الزفير: إخراج النَّفَس من الرئتين، وقد يكون ذلك أحيانًا من الغم أو أن له علاقة به. جاء في (لسان العرب): «الزفر والزفير أن يملأ الرجل صدره غمًّا ثم هو يزفر به» (١).

وفي (تفسير أبي السعود): «(زفير) أي أنين وتنفس شديد» (٢).

وفي (البحر المحيط): «﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ وهو صوت نفس المغموم يخرج من القلب» (٣).

لقد ذكر في هذه الآية الزفير ولم يذكر الشهيق، وفي آية أخرى ذكر الزفير والشهيق، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].

وقد بينا ذلك في تفسيرنا لسورة هود حين عرضنا لتفسير الآية التي ذكرناها فلا نعيد القول فيه(٤).

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۝١٠٢﴾

(الحسنى) مؤنث الأحسن وهي الصيغة العليا في التفضيل، وهي «إما السعادة وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة» (٥).

---

(١) لسان العرب (زفر).
(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٨.
(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٤٠.
(٤) على طريق التفسير البياني ٣ / ٣٢٠.
(٥) الكشاف ٢ / ٣٣٨ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٩.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾

قال: (مبعدون) ولم يقل: (بعيدون عنها) إذ لا يبعد عنها إلا من أبعده الله عنها، ولا ينجو منها إلا من نجاه الله كما قال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢].

فقال: (ننجي) ولم يقل: (ينجو).

وكما قال: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٨].

فقال: (يجنّبها) ولم يقل: (يتجنبها).

وقدم (لهم) على الفاعل وهو (الحسنى) لأن الكلام عليهم وللزيادة في إكرامهم وتبشيرهم بما ذكر.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾:

«أي لا يسمعون صوتها سمعًا ضعيفًا كما هو المعهود عند كون المصوت بعيدًا... (والجملة) مسوقة للمبالغة في إنقاذهم منها» [(١)].

مما يدل على أنهم في غاية الإبعاد عنها بتوفيق الله وطاعته أعاذنا الله منها.

﴿ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾

وهذا فوز آخر، والفوز الأول إبعادهم عن النار وذلك فوز مبين كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الأنعام: ١٥ ـ ١٦].

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٩.

وقال: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ بيان لفوزهم بالمطالب إثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب، أي دائمون في غاية التنعم. وتقديم الظرف للقصر والاهتمام به» (١).

إن هناك نوعين من اشتهاء الأنفس:

اشتهاءً ثابتًا وهو الخلود في النعيم.

واشتهاءً متجددًا وهو ما يطلبونه ويتمنونه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢]، وقوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠ ـ ٢١]، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١] أي ما تطلبون، فلهم ما تشتهي أنفسهم من الأشياء الثابتة والمتجددة.

فعبر عن الاشتهاء الثابت بالفعل الماضي لأن هذا مما استقر في النفوس.

وعبر عن الاشتهاء المتجدد بالفعل المضارع الذي يدل على التجدد.

* * *

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

إن الفزع الأكبر قيل هو «النفخة الأخيرة لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٩.

ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل : ٨٧]» [١] .

وقيل هو يوم القيامة بجملته .

جاء في (البحر المحيط) : «الفزع الأكبر عام في كل هول يكون يوم القيامة ، فكان يوم القيامة بجملته هو الفزع الأكبر» [٢] .

وقيل هو «بيان لنجاتهم من الأفزاع بالكلية بعد بيان نجاتهم من النار ؛ لأنهم إذا لم يحزنهم أكبر الأفزاع لا يحزنهم ما عداه بالضرورة» [٣] .

﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالسلام عليهم وتبشيرهم بالجنة وتهنئتهم .

﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ الإشارة بالقريب لأن اليوم حاضر .

«وإضافة (يوم) إلى ضمير المخاطبين لإفادة اختصاصه بهم وكون فائدتهم حاصلة فيه» [٤] .

ومن النظر في الآيات التي ذكرها في الكافرين والمؤمنين تتبين مقابلات عديدة منها :

١ ـ أنه قال في الكافرين إنهم حصب جهنم هم لهم واردون .

وقال في المؤمنين إنهم عنها مبعدون .

فأولئك حصب جهنم هم لها واردون .

وهؤلاء عنها مبعدون .

وكلّ منهما قدم فيه الظرف فقال في الكافرين : ﴿لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ .

وقال في المؤمنين : ﴿عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ .

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٨ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٤٢ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣٠ .

(٤) التحرير والتنوير ١٧ / ١٥٧ .

وهو تناظر جميل.

٢ ـ وقال في الكافرين: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾

وقال في المؤمنين: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾

وفرق عظيم بين عدم السماعين.

ثم إن المؤمنين لا يسمعون حسيسها وإنما يسمعون البشرى حين تتلقاهم الملائكة وتقول لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

٣ ـ وذكر أن للكافرين غمًّا وزفيرًا ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾.

وأن المؤمنين فيما اشتهت أنفسهم خالدون.

فأولئك في الغم يتحسرون ويزفرون ،

وهؤلاء فيما اشتهت أنفسهم خالدون.

٤ ـ ثم إن أولئك في جهنم خالدون كما قال سبحانه: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

وهؤلاء فيما اشتهت أنفسهم خالدون.

٥ ـ إن الكافرين يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾، فهم في حزن مما هم فيه يدعون بالهلاك.

وهؤلاء لا يحزنهم الفزع الأكبر.

وكلتا الحالتين في الموقف.

٦ ـ إن الكافرين كانوا في غفلة وكانوا ظالمين.

وهؤلاء سبقت لهم منه الحسنى سبحانه بطاعتهم له كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٣ ـ ٦٤].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨].

وغير ذلك.

* * *

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

يحتمل أن يكون (يوم) متعلقًا بـ (يحزنهم) فيكون التقدير: لا يحزنهم يوم نطوي السماء الفزع.

أو متعلقًا بالفزع، فيكون التقدير: لا يحزنهم الفزع يوم نطوي السماء، على معنى: الفزع يوم نطوي السماء لا يحزنهم، أو بـ (تتلقاهم) أي تتلقاهم الملائكة يوم نطوي السماء.

وكل ذلك حاصل في ذلك اليوم.

جاء في (الكشاف): «العامل في (يوم نطوي) لا يحزنهم، أو الفزع، أو تتلقاهم» [(١)].

﴿ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾

يحتمل أن يكون معنى (السجل): الصحيفة، وأن يكون الكاتب، فالسجل يطلق على الكتاب والكاتب[(٢)].

فعلى معنى الصحيفة يكون المعنى: نطوي السماء كما تطوى الصحيفة التي يكتب بها.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٨.

(٢) انظر لسان العرب (سجل)، القاموس المحيط (سجل)، وانظر نظم الدرر ١٢/ ٤٨٧.

وعلى معنى الكاتب يكون المعنى : كما يطوي الكاتب الصحيفة .

والصحيفة إنما يطويها الكاتب .

لعله ذكر السجلّ ليشمل المعنيين : الكتاب والكاتب ، والله أعلم .

جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ اللام في قوله تعالى: (للكتب) متعلقة بمحذوف هو حال من السجل أو صفة له . . . أي كطي السجل كائنًا للكتب أو الكائن للكتب ، فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها» (١) .

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾

أي نعيده كما بدأنا أول خلقه .

جاء في (البحر المحيط): «و(أول خلق) مفعول (بدأنا) والمعنى: نعيد أول خلق إعادة مثل بدأتنا له ، أي كما أبرزناه من العدم إلى الوجود نعيده من العدم إلى الوجود» (٢) .

ويحتمل أن يكون المعنى : نعيده كما بدأناه أول خلقه .

فعلى التقدير الأول يكون (أول) مفعولاً به كما مر .

وعلى التقدير الثاني يكون (أول) ظرفًا ، و(ما) اسمًا موصولاً ، والعائد محذوف. جاء في (الكشاف): «ووجه آخر وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره (نعيده) ، و(ما) موصولة ، أي نعيد مثل الذي بدأناه نعيده ، و(أول خلق) ظرف لبدأنا ، أي أول ما خلق ، أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ ، الثابت في المعنى» (٣) .

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣٠ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٤٣ .

(٣) الكشاف ٢ / ٣٣٩ .

﴿ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ ﴾

أي حقًّا علينا[١]

قد تقول: لقد قال هنا: ﴿ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ ﴾.

وقد يقول أحيانًا ﴿ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا ﴾ فيذكر كلمة (حق) إضافة إلى قوله: ﴿ وَعۡدًا عَلَيۡهِ ﴾، فما السبب؟

فنقول: إنه يذكر الحق عندما يتعلق الأمر بالناس وحقوقهم وأمورهم، وإذا كان المقام يقتضي التوكيد. قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

لقد ذكر في الآية حقوق البائعين أنفسهم وأموالهم، كما أن فيها من التوكيد ما لا يخفى كقوله: ﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ ﴾

فناسب ذكر الحق.

وقال تعالى: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٨ - ٣٩].

فقال: (حقًّا) لأن ذلك إنما يتعلق بأمور الناس أجمعين فيعطي كل ذي حق حقه.

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٨ / ١٩٢.

ثم ذكر أن هذا ما أقسموا عليه بالله جهد أيمانهم فأكدوا ذلك بالقسم وبقوله: ﴿ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾.

فرد عليهم بما هو مؤكد فقال: ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾.

ثم ذكر أنه ليبين الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وهذا إنما يكون في الآخرة في يوم الفصل في الحقوق، فناسب ذكر الحق.

﴿ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

لقد جاء بالفعل الماضي (كنا)، وباسم الفاعل (فاعلين) ولم يقل: (سنفعل ذاك).

وذلك لتنزيل المستقبل منزلة الماضي، كقوله سبحانه: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾، وقوله: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾.

وجاء باسم الفاعل للثبوت لأنه كأن الأمر قد حصل.

فأكد بإن، وجاء بالفعل الماضي واسم الفاعل كل ذلك لتأكيد حصوله.

جاء في (روح المعاني): «الأفعال المستقبلة التي علم الله تعالى وقوعها كالماضية في التحقق، ولذا عبر عن المستقبل بالماضي في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز.

أو قادرين على أن نفعل ذلك» (١).

قد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ ﴾ فذكر السماء بالإفراد.

---

(١) روح المعاني ١٧ / ١٠٣.

وذكر في موضع آخر طي السماوات بالجمع فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فما الفرق؟

فنقول: إن آية الزمر في الرد على المشركين الذين لم يقدروا الله حق قدره، فرد عليهم ربنا بأن الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، وأكد ذلك بالحال المؤكدة فقال: (جميعًا).

وذكر السماوات وقال إنها مطويات بيميه بيانًا لقدرته التي لم يقدروها حق قدرها ولم يقدروه حق قدره.

ثم نزه نفسه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

وليس الأمر كذلك في الأنبياء.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

* * *

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

* * *

الظاهر أن المقصود بالزبور كتاب داود عليه السلام، وأن المقصود بالذكر هنا التوراة.

وقد سماها القرآن ذكرًا كما سمى غيرها مما أنزله ربنا على رسله، فقد قال نوح لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

ونحو ذلك قال هود لقومه (الأعراف: ٦٩).

وقال في التوراة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

والقرآن ذكر وذو الذكر وهو الذكر. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وقال: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

كما أن الزبور معناه الكتاب وجمعه زُبُر. قال تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥].

وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

وقال: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢] أي مدوّن مكتوب في الصحف.

إلا أن الذي يظهر أن المقصود بالزبور والذكر في الآية ما ذكرناه من زبور داود والتوراة، وإن كان قسم من المفسرين يرى أن المقصود بالزبور والذكر عموم ما أنزل الله من الكتب.

وذهب بعضهم إلى أن المقصود بالذكر هواللوح المحفوظ والله أعلم.

جاء في (الكشاف): «زبور داود عليه السلام، والذكر: التوراة، وقيل: اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب.

والذكر: أم الكتاب، يعني اللوح»[١].

وجاء في (البحر المحيط): «الزبور: الظاهر أنه زبور داود. وقاله الشعبي. ومعنى هذه الآية موجود في زبور داود وقرأناه فيه»[٢].

وقرأنا في التوراة نحو ذلك المعنى من أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون. فمما ورد فيها في أشعيا في الإصحاح الستين: «كل غنم قيدار تجتمع إليك. كباش نبايوت تخدمك. . . وتنفتح أبوابك دائمًا نهارًا وليلاً لا تغلق. وشعبك كلهم أبرار إلى الأبد يرثون الأرض».

وهذا النص واضح أنه في مكة وفي الكعبة تحديدًا.

وقيدار ونبايوت من أولاد إسماعيل.

وقد ذكرنا شيئًا من ذلك في كتابنا (نبوة محمد من الشك إلى اليقين).

* * *

﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

أي إن في هذا الذي ذكرناه كفاية لقوم اتصفوا بالعبادة على جهة الثبوت، فإن هذا كاف لهم.

وقيل: إن المقصود هو ما ورد في القرآن على العموم وليس ما في هذه السورة فقط.

والبلاغ قد يأتي بمعنى الكفاية، وقد يأتي بمعنى التبليغ[٣]، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤]، وقوله: ﴿ وَمَا

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٩ وانظر التفسير الكبير للرازي ٨ / ١٩٢.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤.

(٣) انظر (لسان العرب): بلغ.

عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: ١٧].

وربما احتمل البلاغ في الآية المعنيين: الكفاية والتبليغ.

وقد أكد ذلك بـ (إن) وجاء بـ (في) الظرفية للدلالة على أن العابدين يكفيهم في الاعتبار ما لا يكفي غيرهم.

جاء في (البحر المحيط): «(إن في هذا) أي المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة لبلاغًا كفاية يبلغ بها إلى الخير، وقيل: الإشارة إلى القرآن جملة»[1].

وجاء في (تفسير أبي السعود): «(لقوم عابدين): أي لقوم همهم العبادة دون العادة»[2].

* * *

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

أي هو رحمة للعالمين جميعًا. أي إن الغرض من رسالته ﷺ هو الرحمة بالناس أجمعين، فآمن من آمن وأعرض من أعرض.

ولما كانت رحمته سبحانه وسعت كل شيء ذكر العالمين على العموم.

جاء في (البحر المحيط): «وكونه عليه السلام رحمة لكونه جاء بما يسعدهم.

و(للعالمين) قيل: خاص بمن آمن به، وقيل: عام... أي هو رحمة في نفسه وهدى بيّن، أخذ به من أخذ وأعرض عنه من أعرض»[3]

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣١.

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤.

وجاء في (تفسير أبي السعود): «أي ما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة. . . فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم في النشأتين»[1].

* * *

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

يحتمل أن تكون (ما) في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ كافة، و(إنما) تفيد الحصر.

كما يحتمل أن تكون (ما) اسمًا موصولاً، أي إن الذي يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد.

وعلى الاحتمال الأول يكون المعنى أنه لا يوحى إليّ إلا التوحيد. واعترض على هذا القول بأن الوحي لم يقتصر على التوحيد وإنما هو في أمور كثيرة من مطالب الشريعة.

وأجيب بأن التوحيد هوالمقصود الأول من الرسالة.

وعلى الاحتمال الثاني يكون المعنى ظاهرًا وهو أن الذي يوحى إليه أنه لا إله إلا إله واحد وليست آلهة متعددة.

ولا يعني هذا الوجه أن الوحي مقصور على هذا، وإنما هذا ما أوحي إليه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١].

فهذا ما أوحي إليه وليس الوحي مقصورًا على هذا.

جاء في (الكشاف): «(إنما) لقصر الحكم على شيء، أو لقصر

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣١ ـ ٢٣٢.

الشيء على حكم ، كقولك : (إنما زيد قائم) و(إنما يقوم زيد) وقد اجتمع المثالان في هذه الآية ؛ لأن ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مع فاعله بمنزلة : إنما يقوم زيد ، و﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بمنزلة : إنما زيد قائم .

وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله ﷺ مقصور على استئثار الله بالوحدانية . . .

ويجوز أن يكون المعنى : أن الذي يوحى إلي ، فتكون (ما) موصولة» [(١)] .

وجاء في (تفسير أبي السعود) : «أي ما يوحى إليّ إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد لأنه المقصود الأصلي من البعثة . وأما ما عداه فمن الأحكام المتفرعة عليه ، فإنما الأولى لقصر الحكم على الشيء كقولك : (إنما يقوم زيد) أي ما يقوم إلا زيد ، والثانية لقصر الشيء على الحكم كقولك : (إنما زيد قائم) أي ليس له إلا صفة القيام» [(٢)] .

وردّ أبو حيان على هذا الاحتمال بقوله : «ولو كانت (إنما) دالة على الحصر لزم أن يقال : إنه لم يوح إليه شيء إلا التوحيد ، وذلك لا يصح الحصر فيه ، إذ قد أوحى له أشياء غير التوحيد . . .

ويجوز في (ما) من (إنما) أن تكون موصولة» [(٣)] .

وقد يقال : إن المقصود إنه في مسألة التوحيد ما أوحي إليّ إلا أنما إلهكم إله واحد .

فتخصيص الوحي بما يتعلق بالتوحيد نظير قوله تعالى : ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣٢ .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤ .

﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٧٠] أي فيما يتعلق بهذا الأمر وليس فيما أوحي إليه كله.

وعلى كل ففي التقدير الأول مندوحة وفي كلٍّ سعة.

قد تقول: لقد قال في سورة الكهف: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ولم يقل مثل ذلك في آية الأنبياء.

ثم إن تمام كل من الآيتين مختلف.

فقد قال في آية الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾

وقال في آية الأنبياء: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

فما سبب الاختلاف؟

فنقول:

أما عدم ذكر أنه بشر مثلهم في آية الأنبياء فلأنه تقدم هذا المعنى في أول السورة وقد ذكر المشركون ذلك. قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾

وقرر ربنا هذا المعنى بعد هذه الآية فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾

فاكتفى بما مر ذكره.

بخلاف سورة الكهف فإنه لم يذكر فيها هذا المعنى فذكره في الآية، فناسب كل تعبير موضعه.

جاء في (ملاك التأويل) في بيان هذا الأمر: «أنه لما تقدم في أول سورة الأنبياء إثبات كون الرسل عليهم السلام من البشر فيما حكاه تعالى من قول الكفار بعضهم لبعض: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ، ثم قال تعالى: رادًّا لقولهم مثبتًا كون الرسل من البشر: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ .

ثم تتابع في السورة ذكر الرسل من البشر في عدة مواضع إفصاحًا وإشارة ، آخرها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ، والخطاب لنبينا عليه السلام ، قال تعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ، فلم يحتج هنا أن يذكر كونه ـ عليه السلام ـ من البشر إذ قد توالى ذكر ذلك جملة وتفصيلاً .

أما سورة الكهف فلم يتقدم فيها مثل هذا ، فكان مظنة الإعلام بكونه ﷺ من البشر إرغامًا لأعدائه ، ولما في ذلك من تلطفه تعالى بالخلق ورحمته إياهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

فكون الرسل من البشر من أعظم إنعامه سبحانه على الخلق.

وخصت آية الكهف بذكر بشريته عليه السلام لما بيناه.

وورد كل ذلك على ما يناسب ، ولم يكن عكس الوارد ليناسب.

والله أعلم بما أراد» (١).

وأما قوله تعالى في آية الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا

---

(١) ملاك التأويل ٢ / ٦٥٦.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ، فقد ذكر فيه أمرين: العمل الصالح ، وعدم الشرك .

أما قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فهو مناسب لما تقدم الآية من ذكر العمل الصالح ، فقد قال قبل الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾

وقال قبلها في خواتيم السورة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾

فناسب ذكر العمل .

ثم إن هذا مناسب لما تقدم في أول السورة وهو قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ .

فناسب ذلك السياق الذي وردت فيه الآية كما ناسب أول السورة . وليس في آية الأنبياء نحو ذلك .

وأما قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ فهو مناسب لقوله في أواخر السورة: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ ، وهو تحذير لمن أشرك بعبادة ربه واتخذ عباده من دونه أولياء .

ومناسب لما ورد في أول السورة وهو قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ .

ومناسب لما ورد في أول السورة في قصة أصحاب الكهف وإيمانهم بالله وحده وكفرهم بما أشرك قومهم . فقد قال تعالى فيهم: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ

قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ .

فناسب ذلك ما ورد في سياق الآية وما ورد في أول السورة .

وليس في آية الأنبياء مثل هذا .

وأما قوله سبحانه في آية الأنبياء : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فهو مناسب لقوله في الآية قبلها : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ .

وقد أرسله ربه بالإسلام كما هو معلوم .

ومناسب لقوله سبحانه في أول السورة : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

وهذا الكتاب هو القرآن وهو كتاب المسلمين كما هو معلوم .

فناسب قوله : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ سياقه وما ورد في أول السورة ، فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

وقوله : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ «استفهام يتضمن الأمر بإخلاص التوحيد والانقياد إلى الله تعالى» [(١)] .

وجاء في (الكشاف) : «وفي قوله : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أن الوحي الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله وأن تخلعوا الأنداد» [(٢)] .

* * *

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٣٤.

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٩.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

﴿ ءَاذَنتُكُمْ ﴾ أي أعلمتكم. ويتضمن الفعل معنى التحذير والإنذار.

وقوله: (على سواء) يعني أعلمتكم جميعًا لم أستثن أحدًا منكم، بل أعلمتكم كلكم.

فقد حذرهم وأنذرهم كلهم مغبة توليهم.

وقوله: ﴿ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ يعني أنه لا يعلم متى سيقع ما حذرهم منه أهو قريب أم بعيد، ولكنه واقع لا محالة. فقد نفى عن نفسه العلم بموعد وقوعه.

وقوله: ﴿ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ يدل على أنه وعدهم ما يسوؤهم من غلبة المسلمين عليهم وما يلحقهم من عذاب في الدنيا والآخرة.

وجاء بالفعل المضارع (توعدون) ولم يقل: (ما وعدتم) للدلالة على تكرار الوعيد والإنذار والاستمرار في ذلك.

جاء في (الكشاف): «(آذن) منقول من (أذن) إذا علم، ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٩]...

والمعنى: أني بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب توحيد الله... كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحسّ منهم بغدرة فنبذ إليهم العهد وشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعًا بذلك.

(على سواء) أي مستوين في الإعلام به، لم يطوه عن أحد منهم وكاشف كلهم...

(ما توعدون) من غلبة المسلمين عليكم كائن لا محالة، ولا بد من

أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك ؛ لأن الله لم يعلمني علمه ولم يطلعني عليه» (١) .

وجاء في (البحر المحيط) : «(آذنتكم) : أعلمتكم ، وتتضمن معنى التحذير والنذارة ، (على سواء) لم أخص أحدًا دون أحد» (٢) .

و«(ما توعدون) من غلبة المسلمين عليكم وظهور الدين أو الحشر مع كونه آتيًا لا محالة» (٣) .

لقد نفى علمه بـ (إنْ) ولم ينفه بـ (ما) ، فلم يقل : (وما أدري) ذلك أن (إنْ) آكد في النفي من (ما) فإن ذلك مختص علمه بالله .

قد تقول : ولكنه نفى الدراية عن نفسه بـ (ما) في موضع آخر فقال : ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف : ٩] .

فنقول : إن ذلك بحسب الدراية ، فإن كانت الدراية أبعد في عدم العلم نفاها بـ (إنْ) .

وآية الأنبياء أبعد في عدم الدراية من آية الأحقاف «فقد أطلع الله رسوله فيما بعد على ما سيفعله به وبهم في الدنيا والآخرة ، فقد وعده بالفتح والنصر والمغفرة وكسر شوكة الكفر في الدنيا ، وأطلعه على ما سيفعله به وبهم في الآخرة ، ولذلك قيل : الآية منسوخة(٤) .

في حين لم يطلع الله سبحانه رسوله ولا أحدًا من خلقه على موعد يوم القيامة ، فإن هذا مما اختص الله به نفسه ، ولم يظهره لأحد غيره . فأكد

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٩ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤ .

(٣) روح المعاني ١٧ / ١٠٧ .

(٤) انظر الكشاف ٣ / ١١٨ .

عدم العلم بالساعة بـ (إنْ) والآخر بـ (ما)» [(١)].

فاتضح الفرق.

* * *

﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

لقد خصص ذكر الجهر بالقول فقال: ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ لأن الجهر قد يكون في غير القول. فقد يكون الجهر بما يدرك بالبصر، قال تعالى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥]، وقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾ [الأنعام: ٤٧].

جاء في (المفردات في غريب القرآن): «(جهر) يقال لظهور الشيء بإفراد حاسة البصر أو حاسة السمع.

أما البصر فنحو (رأيته جهارًا)، قال الله تعالى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ . . .

وأما السمع فمنه قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ﴾، وقال عز وجل: . . . ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ﴾» [(٢)].

وقد خصص الجهر بالقول في الآية لأن السياق في القول، فقد قال قبل الآية: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾

فالسياق كما هو ظاهر في التبليغ.

---

(١) معاني النحو ٤ / ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) مفردات الراغب (جهر).

لقد قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾

فأسند الكتمان إليهم ولم يسند الجهر إليهم، فلم يقل: (يعلم ما تجهرون من القول ويعلم ما تكتمون) وذلك لأن الجهر ليس خاصًّا بهم، فقد جهر الرسول بالقول وبلغهم وآذنهم على سواء فجهر بذلك.

وهم يجهرون بكفرهم فأطلقه.

وأما الكتمان فقد أسنده إليهم لأن الكلام عليهم، فهم الذين يكتمون في صدورهم ما يكتمون وما يضمرون من الحقد ونحوه.

جاء في (الكشاف): «والله عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به من كلام الطعانين في الإسلام، وما تكتمونه في صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين، وهو يجازيكم عليه»(١).

قد تقول: ولكن قد يطلق الجهر والخفاء أحيانًا، وقد يضيفهما إلى المخاطبين.

فقد قال تعالى في سورة الأعلى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾ فأطلق الجهر والخفاء.

وقال في موضع آخر: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ [الأنعام: ٣].

فأضاف السر والجهر إليهم فما الفرق؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه.

أما آية الأعلى فإن الكلام فيها عام غير مقيد بالإنسان. قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٥].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٩.

فليس الكلام على الإنسان أصلاً وإنما الكلام على الله سبحانه وصفاته.

ثم إنه أطلق الأفعال أيضًا. فقد قال: (خلق) ولم يخصص الخلق بشيء معين. وقال: (فسوى)، وقال: (والذي قدر) و(فهدى). وكلها أفعال مطلقة غير مقيدة.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾﴾ وليس ذلك في الكلام على الإنسان، وإنما هو كله في صفات الله سبحانه وقدرته، فأطلق الجهر والخفاء على العموم ولم يسنده أو يضفه إلى معين.

وأما آية الأنعام وهي قوله: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ فقد أضاف السر والجهر فيها إلى ضمير المخاطبين لأن الكلام على الإنسان.

فقد قال سبحانه قبل الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٥﴾﴾

فالكلام كما هو واضح على الإنسان. وقد خاطبهم بذلك فناسبت الإضافة إليهم.

فكان كل تعبير مناسبًا لسياقه الذي ورد فيه.

وهذا ظاهر.

* * *

﴿وَإِنۡ أَدۡرِى لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٌ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾

أي «وما أدري لعل تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون، أو تمتيع لكم إلى حين ليكون ذلك حجة عليكم وليقع الموعد

في وقت هو فيه حكمة» (١).

* * *

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

أي دعا الرسول بذلك فقال: ربّ احكم بالحق.

و(رب) منادى مضاف إلى ياء المتكلم، أي يا رب احكم على هؤلاء بالحق وعجل لهم العقوبة وشدد عليهم العذاب بما يستحقون ولا ترحمهم.

جاء في (الكشاف): «ومعنى (بالحق) لا تحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم» (٢).

وجاء في (روح المعاني): «والحق: العدل، أي رب اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لتعجيل العذاب والتشديد عليهم، فهو دعاء بالتعجيل والتشديد وإلا فكل قضائه تعالى عدل وحق» (٣).

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي: «﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ فيه وجوه: أحدها: أي رب اقض بيني وبين قومي بالحق، أي بالعذاب، كأنه قال: اقض بيني وبين من كذبني بالعذاب.

وقال قتادة: أمره الله تعالى أن يقتدي بالأنبياء في هذه الدعوة وكانوا يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] فلا جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٩.

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٩.

(٣) روح المعاني ١٧ / ١٠٨ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣٢.

وثانيها: افصل بيني وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصرني عليهم»[١].

﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾

أضاف الرب إلى ضمير المؤمنين وجاء باسمه الرحمن، أي نستعين بربنا الرحمن ليرحمنا ويعيننا على ما تصفون.

وقرأ الأكثرون (قل) بالأمر[٢].

وأنزلت القراءتان مرة بالأمر ومرة بالفعل الماضي ليدل سبحانه على أنه أمر رسوله بالدعاء فدعا. والله أعلم.

﴿ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

يعني ما تذكرونه من الشرك والأباطيل ونحو ذلك مما يصفون الله به مما لا يليق به سبحانه.

وما يصفون به رسوله من صفات الاستخفاف والاستهزاء كوصفه بالجنون والكذب والسحر.

ويصفون به المؤمنين من صفات الاستهجان والاستهزاء بهم ووصفهم لهم بالضلال كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقالوا لهم: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ٤٧].

وقالوا: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك: ٩].

وكانوا يقولون إذا رأوا المؤمنين: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام: ٥٣].

---

(١) التفسير الكبير ٨ / ١٩٥.

(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢ / ٣٦٥.

ونحو ذلك من صفات الاستكبار والاستخفاف بهم.

وكانوا يطمعون أن يكون لهم النصر والغلبة وأن العاقبة لهم فخيب الله أملهم.

جاء في (الكشاف): «كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة، فكذب الله ظنونهم، وخيب آمالهم، ونصر رسوله ﷺ والمؤمنين، وخذلهم»(١).

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي: «أما قوله تعالى: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أي من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتي من الأباطيل والتكذيب. كأنه سبحانه قال: قل داعيًا لي: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ وقل متوعدًا للكفار: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾...

أي قل لأصحابك المؤمنين: وربنا الرحمن المستعان على ما يصف الكفار من الأباطيل. أي من العون على دفع أباطيلهم.

وثانيها: كانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسوله ﷺ والمؤمنين وخذلهم»(٢).

وقرئ: (على ما يصفون) وذلك ـ والله أعلم ـ ليذكر حالتين، حالة مواجهتهم فيقول لهم: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

وحال غيبتهم فيقول للمؤمنين: (وربنا الرحمن المستعان على ما يصفون).

فجمع في القراءتين حالتي المواجهة والغيبة.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٤٠.

(٢) التفسير الكبير ٨ / ١٩٦.

وقال: ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ بالفعل المضارع ولم يقل: (على ما وصفتم) بالفعل الماضي ؛ وذلك لأنهم يكررون الأوصاف ويذكرونها باستمرار.

إن هذه الآية فيها جانبان:

جانب يتعلق بالأشخاص.

وجانب يتعلق بالمعتقدات.

أما الجانب الأول فهو قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ فهو دعاء على الكافرين بأن يحكم عليهم بالعدل لا بالرحمة.

وأما الجانب الآخر فهو قوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فهو استعانة على معتقداتهم وما يصفونه على العموم.

وفي ختام السورة يحسن أن نشير إلى ارتباط خاتمة السورة بأولها كما أشرنا إلى ارتباط مفتتح السورة بخاتمة السورة التي قبلها، أعني سورة (طه) في مفتتح السورة فنقول:

إنه من النظر في أول السورة وخاتمتها يتضح أن بينهما مناسبة ظاهرة وارتباطاً بيناً.

فقد ابتدأت السورة باقتراب الحساب للناس وهو قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

وختمت باقتراب الوعد الحق وأحداث الساعة وما بعدها إلى ورود النار أو دخول الجنة، ابتداء من قوله سبحانه: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وما بعد ذلك من الآيات.

وذكر الغفلة في أول السورة وذلك قوله: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

وقال في أواخرها: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

كأن ذلك تسلسل مشهد متصل[١].

وهو شأن السور على العموم في التناسب بين المفتتح والخواتيم[٢].

جاء في (نظم الدرر): «فقد انطبق آخر السورة على أولها بذكر الساعة ردًّا على قوله: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ وذكر غفلتهم وإعراضهم.

وذكر القرآن الذي هو البلاغ، وذكر الرسالة بالرحمة لمن نسبوه إلى السحر وغيره، وتفصيل ما استعجلوا به من آيات الأولين وغير ذلك»[٣].

* * *

---

(١) انظر كتابنا (التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم) ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) انظر القسم الأول من كتابنا (التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم).

(٣) نظم الدرر ١٢ / ٥١٥.

مراجع الكتاب

ـ الإتقان في علوم القرآن **للسيوطي ـ ط٣/ ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م.**

ـ أسئلة بيانية في القرآن الكريم ـ **الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ سوريا ـ الطبعة الثانية ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.**

ـ البحر المحيط **لأبي حيان ، مطابع النصر الحديثة ـ المملكة العربية السعودية ـ الرياض.**

ـ البرهان في علوم القرآن **لبدر الدين الزركشي ـ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ـ ط ١ / ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م ـ دار إحياء الكتب العربية.**

ـ البرهان في متشابه القرآن ـ **لمحمود بن حمزة الكرماني ـ دار الوفاء. ج . م . ع ، ط ٢ ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨م.**

ـ بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ـ **الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥.**

ـ تاج العروس شرح القاموس **لمحمد مرتضىٰ الزبيدي ـ منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت ـ تصوير على الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ.**

ـ التحرير والتنوير **لمحمد الطاهر بن عاشور ـ دار سحنون للنشر والتوزيع ـ تونس.**

- التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا - الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

- تفسير أبي السعود لأبي السعود بن محمد العمادي - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه.

- التفسير الكبير للرازي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان ط ٤ / ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

- التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم - د. فاضل صالح السامرائي - دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - ط ١/ ١٤٣٢ هـ.

- الجملة العربية تأليفها وأقسامها - د. فاضل صالح السامرائي - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - عمان - الأردن - ط ١ / ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل - مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط ١ / ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي - إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي.

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - دار إحياء الكتب العربية.

- شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهري - دار إحياء الكتب العربية.

ـ شرح الرضي على الكافية ـ **تحقيق يوسف حسن عمر.**

ـ على طريق التفسير البياني ـ **د. فاضل صالح السامرائي ـ نشرته جامعة الشارقة ـ الشارقة ـ الإمارات العربية المتحدة.**

ـ فتح القدير **للشوكاني ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩ هـ.**

ـ الفروق اللغوية **لأبي هلال العسكري ـ تحقيق أبي عمرو عماد زكي الباروي ـ المكتبة التوفيقية ـ مصر.**

ـ القاموس المحيط **لمجد الدين الفيروزابادي ـ ط ٥ شركة فن الطباعة ـ مصر.**

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل **لجار الله الزمخشري ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م ـ.**

ـ كشف المعاني في المتشابه من المثاني **لبدر الدين بن جماعة ـ تحقيق د. عبد الجواد خلف ـ دار الوفاء ط ١ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م ـ مصر ـ المنصورة.**

ـ لسان العرب **لابن منظور ـ مصور على طبعة بولاق.**

ـ المصباح المنير **للفيومي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت.**

ـ معاني النحو ـ **د. فاضل صالح السامرائي ـ مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر ـ الموصل ط ١ / ١٩٩١ م.**

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب **لابن هشام الأنصاري ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.**

ـ المفردات في غريب القرآن **للراغب الأصفهاني ـ دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان ـ ط ١ / ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م.**

ـ ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي ـ تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

ـ من أسرار البيان القرآني ـ د. فاضل صالح السامرائي ـ دار الفكر ـ عمان ـ الأردن ـ ط ٢ / ٢٠١٠م ـ ١٤٣١م.

ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ـ دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري ـ مطبعة مصطفى محمد بمصر.

* * *

فهرست سورة الأنبياء

* * *